

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01027 4623

DN
12
"A
19

Library of
The American University
at Cairo

Happy is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding .+ .+ .+

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
in memoriam

John Mc Kinney
Pittsburgh, Pennsylvania



02-B6067

10-12-02



American
University
Cairo

A8881

1963

١٩٦٣

مكتبة المتحف المصري
بمصر

هفتم کتب

١٩٦٣

962.4
Ib52
Mch.

917, 14
31.5
ف

18884

DT
124
A62
1936

الى

الأستاذ الدكتور محبوب ثابت

بعض ما تستحق...

ع. ١

فهرس الكتاب

صفحة	صفحة
نهضة السودان وثورة المهدي ٩١	الاهداء ج
اخلاء السودان ١١٣	الفهرس د
فتح السودان واتفاقية ١٨٩٩ ١٢١	» هـ
المسألة السودانية ١٣٢	المراجع و
المفاوض المصري والسودان ١٤٠	المقدمة ز
١٩٢٤ ١٤٧	قدسية النيل ١
خاتمة ١٥٧	السودان القديم ٨
من هنا وهناك ١٦١	السودان الاسلامي ١٨
الذكرى الجميلة ١٦٣	عمالك السودان الاسلامية ٢٤
السودانيون في أخلاقهم عامة ١٦٧	سلطنة الفور ٣٢
علاقات الأسرة ١٧١	فتح السودان ٣٩
جمال الرجل وجمال المرأة ١٧٤	أقاليم خط الاستواء ٥٣
أخلاق عرب السودان ١٧٦	أوروبا واستعمار افريقية ٦٣
تاجوج ومخلق ١٨١	المستكشفون واستعمار السودان ٧١
ألفاظهم ١٩١	الانجليز والسودان ٧٧

فهرس الكتاب

صفحة	صفحة
٢١٨ سلامهم	١٩٢ أمثالهم
٢٢٠ شعرهم	١٩٦ أحاجيهم وألغازهم
٢٢٣ مساكنهم	١٩٧ بعض أغانيهم
٢٢٧ ألقابهم	١٩٨ أبطالهم
٢٣٢ طعامهم	١٩٩ على محمد البنا
٢٣٤ شرايهم	٢٠٢ على عبد اللطيف
٢٣٧ حيوانهم	٢٠٥ أفراحهم
٢٤١ مدنهم	٢١١ أحرانهم
٢٤٤ خاتمة في كلمات	٢١٣ طبهم
*	٢١٥ مجالسهم

evacuation & reconquest its include the
 and by the events leading to

القاهرة
 دار مجلتي للطبع والنشر

1936

5 page.

مراجع الكتاب

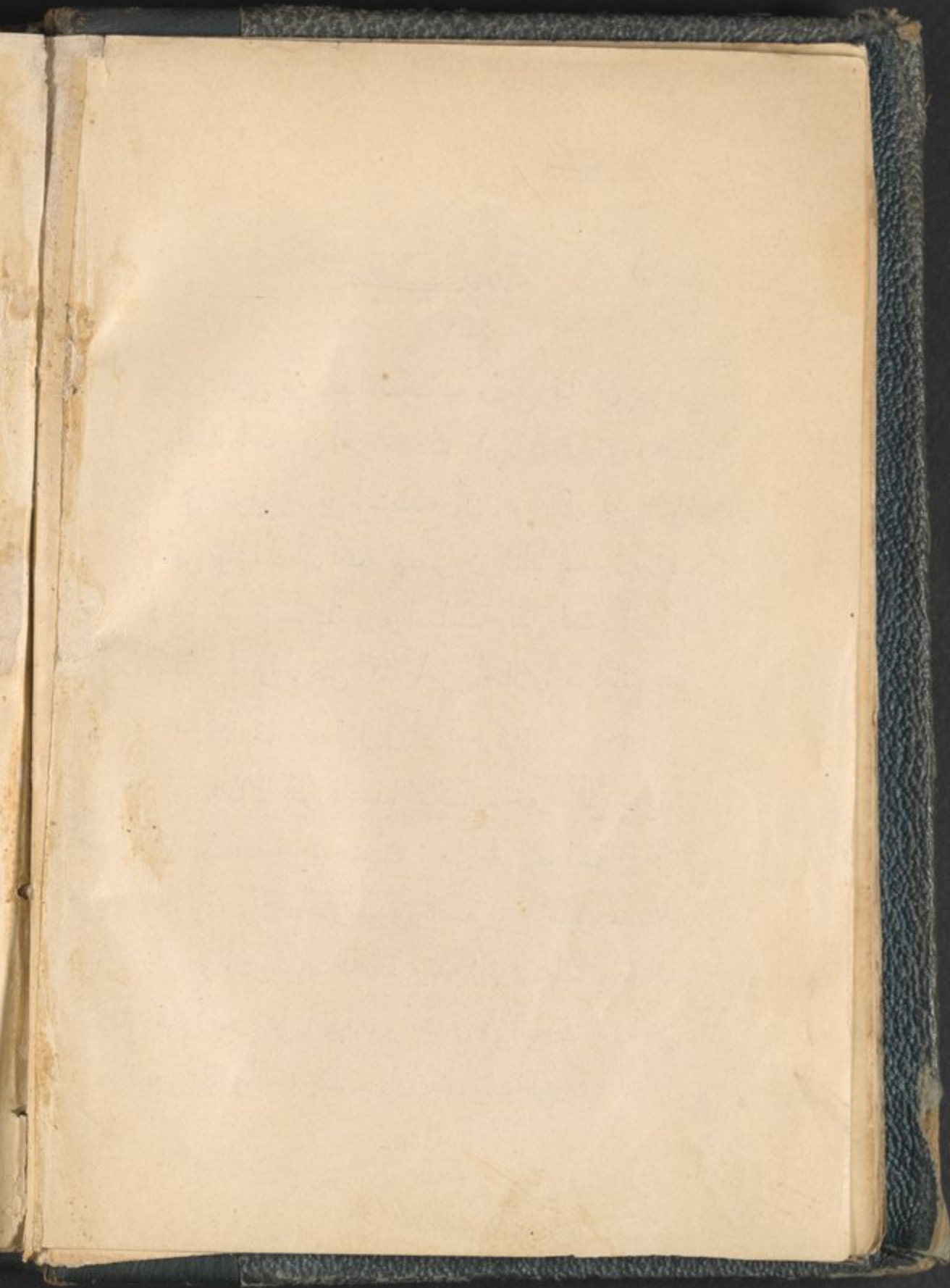
- (١) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته لنعوم شقير باشا
- (٢) أمثال العوام في مصر والسودان والشام » » »
- (٣) تقويم البلدان للسكندي
- (٤) فتوح البلدان للبلاذري
- (٥) السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية لداود بركات بك
- (٦) عشرة أيام في السودان للدكتور حسين هيكل بك
- (٧) من محاضرات في كلية الآداب بالجامعة المصرية للأستاذ شفيق غربال
- (٨) الفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن
- (٩) كتاب السودان للأستاذ عبد الله حسين
- (١٠) مصر والسودان في نظر العلم والتاريخ للدكتور أحمد فؤاد
- (١١) مذكرات خاصة عن السودان للواء محمد لبيب الشاهد باشا
- (١٢) » » » للامير الای محمد رفعت بك

- 1) The Egyptian Soudan by Alford and Sword
- 2) Winning of the Soudan by Crabices
- 3) Anglo Egyptian Soudan by Mac Michael
- 4) A History of the Arabs in the Soudan by Mac Michael
- 5) Situation Internationale de L'Egypte et du Sudan par Jules Cocheri

مقدمة

غايتي من هذا الكتاب وأملى فيه أن يعرض عليك الحق في أمر بلادك ، ولا أزعج أنى وفقت كل التوفيق ، بل أستطيع أن أقول في غير التواء أنني حاولت أن أقدم للمصريين كتاباً صغيراً يعرفهم على تاريخ سودانهم والسياسة التي لعبت دورها هناك ، ويعرض كثيراً من أخلاق مواطنيه على حقيقتها في غير تزويق أو تسوى

فإذا لم يكن في هذا الكتاب خير فأقل ما يقال إنه كتاب قديم حديث ، من فجر الفراعنة إلى أيام فاروق ، في أسلوب متواضع ، وتحليل معتدل ، أرجو أن يكون فاتحة ، وتذكرة لأدبائنا وعلماؤنا ، فهم أصبر على الجهد ، وأصدق في البحث ، وأجدر منى بالرواية عن السودان والتأليف فيه .



قدسية النيل

كلما تذكرت طفولتي عدت بالذكري الى النيل ، حيث
الخرطوم الفاتنة في بساطتها الساحرة في جمالها المطبوع ،
ولولا ذكريات الخرطوم لعرفت النيل كما عرفته سيداتنا
حين يصحبنه في قارب أو على شاطئيه ، وقلبا يدور
بخلدهن شيء عن قدسيته ، فأنهن يعجبين بالنيل وانسياب
مائه في رفق ولين ، لأن فيهن صفات من صفاته ، فيه
الدعة وهي من طبائعهن ، وفيه الزهو وهي صفة تغلب
عليهن ، وفيه الجمال الذي يعسر على الكاتب أن يصفه أو
يرسمه ، ويعز على بيانه أخرجه في صورته الصريحة الصادقة ،
كما فيه سحر لعل منه سحرهن !

فاذا كان النيل عظيما في عرف السيدات على هذا
النحو وفي هذا الأسلوب ، فأن حياتنا اليوم بما فيها من
قيد يصاحب النيل من منبعه الى مصبه تفرض علينا جديداً
في تقديره وتقديسه ، لعله جديد عرفه قدماءنا حين سمو

به عن صحبته في نزهة فارغة ، ووضعوه من أنفسهم
موضع التأليه والا كبار .

لقد كنت أسكن إلى شاطئ النيل في طفولتي مع
بعض الصحاب ، وكانت حافته المشرقة على سراي الحاكم
العام في الخرطوم تستقبلنا إذا استيقظ الصبح أو أدبر
النهار ، ونحن في طريقنا إلى المدرسة وفي عودتنا منها ،
وكنا إذا فرغنا من أثقال الدرس عدنا إلى بيوتنا ونحن
نلعب عند حافته كرة من الجلد أو كرة من الحجر ! حتى
إذا تعبنا أجسامنا واتسخت ثيابنا خلعنا نعائنا وألقينا
أقدامنا في مائه ، ولم نكن نعلم بعد أن ماء أقدامنا جرى
على الأرض ، ولا كنا نعلم أين ينبع ، وأين يصب ،
ولم نكن نعرف أنه خلق أمة وجمع جنسا ، وسوى
في الشكل والموضوع جماعة من الناس .

ولكننا أحسنا إحساساً عميقاً لا ندري كنهه أن هذا
الماء بعينه هو الذي يجري في القاهرة ، وأن هذه الوجوه التي
نراها هي صدى للقاهريين مهما اختلف اللون واضطربت
اللهجات ، ولم نشعر قط أننا في غربة أو في حياة لا يحياها
المصريون ، وكأنني أرتد قليلاً قليلاً إلى الاحساس القديم

فيخيل إلى أنني كنت في ريف مصرى قريب الشبه بحياة
المدن ، أو في مدينة مصرية أدنى في الرسم إلى القاهرة .
كان النيل قبل كل شيء يردنا إلى هذا الاحساس ،
لا يدعونا إليه علم من العلوم ولا حديث من
الأحاديث ، ولا توجيه من التوجيهات التي يلفت بها
الكبار صغارهم في بسائط العلوم وتوافه الأمور ؛ كان
النيل وحده وقبل كل شيء يدفعنا إلى تقدير وحدته ،
واعتبار قدسيته ، فلا عجب إن رضيت اليوم عن ماضيه ،
ووضعت الرجاء في مستقبله .

لقد أحب النيل أهله من منبعه إلى مصبه فعبدوه
وجعلوا له آلهة وشادوا له المعابد ، وراحوا يفرحون به ،
ويرقصون لمقدمه و يقيمون الولائم تحية له وتبركا .
وكان فرعون وكهنته وشعبه وعبده يقدسون النيل ،
فيحزنون إن أقبل متراخياً متثاقلاً . لا يحمل الطمى الغليظ
والماء الكثير ، وكنت تراهم في بيوتهم حزاني ، وفي
معابدهم ركوعاً داعين أربابهم ، ملحين في خشوعهم
ودعائهم ، وكانت أرضهم تبكي مثلهم ، فقد أقفرت من
الثر وخلت من القمح والشعير ! ولم تعد كرومهم ناضرة ،

ولا أشجارهم مثمرة ، وأصبحت حياتهم هباء ، وكأن السماء
ساخطة فهم لا يتنفسون هواء نقياً ، ولا يستنشقون عبيراً
ذكياً ، لا يستشعرون في الأرض نعمة . ويشاهدون في
السماء نقمة ... لم تعد في الدنيا أفراح فقد ازدحمت
بيوتهم بالنواح ، وشتمت عليهم الحياة ، فمنهم من ينتحر ،
ومنهم من يهب نفسه وماله لأله النيل ، وفرعونهم يهرع
إلى المعابد يقدم القرابين ، ويطلق كهنته البخور لعل السيد
يلين ويفيض ماؤه ، وتعود الشمس إلى زهوها ؛ والأرض
إلى زهرها ، والبيوت إلى أفراحها .

وكانوا إذا أقبل فيضه عميماً أزهرت الأرض ، وعلت
الشفاه ابتسامة حلوة لا تحتفى أبداً ، وامتلاّت المعابد
بآيات الشكر تتردد في الصباح والمساء ، وقدمت القرابين
للمعبود العظيم ، وخرج فرعون وخدمته في موكب جامع
حافل يوزعون الخير هنا وهناك فان رب الخير أقبل
بالخير ، ومعبود الجميع أرضى الجميع ، فهاهى ذى الكروم
قد أنضجت وأثمرت فلا بأس من نشوة الخمر ...

هاهى ذى الأرض قد اخضرت وأزهرت فليرقص
الراقصون ولينشد المنشدون ، وليحى الشعب حياته السعيدة

المرتفة ، وليذكر أهل النيل فضل النيل فقد رد خوفهم
أمننا ، وحياتهم صفواً ... أليس هو الذى أطعمهم من
جوع وآمنهم من خوف ؟ أليس هو الذى رسم لهم حياة
الهدوء والاستقرار ؟ أليس هو الذى خلق منهم قوة
ووحدة وحكومة وقانوناً ؟ أليس هو الذى ملأهم تيباً
ونخراً ودفعهم الى الشرق والغرب يعلنون رسالتهم
في كبرياء وزهو ؟ أليس هو الذى علمهم الصبر وشغل
قلوبهم بالحب وملأ نفوسهم بالخير ؟ أليس هو الذى
جرت عليه أفلاكهم تحمل أرزاقهم وأقواتهم وجيوشهم
ومدنياتهم ؟

لقد عرف أهل النيل فضل النيل عليهم فبروا به
وقدسوا وحدته ، وذكروه من منبعه إلى مصبه ، ومضوا
في تقديسهم له جيلاً بعد جيل ، فكانوا يلقون فيه
كل عام أجمل فتياتهم قرباناً وتضحية ، كانت تخرج اليه
في قسامتها الساحرة وثيابها الفاخرة ، في خطر المها وخفر
العروس ، لا يساورها شك في الموت ، ولا يساورها
شك في الحياة أيضاً ، فان ما يحيي شعباً لا يميت فرداً !
فهي إذن في ذمة الخلود جمالها وكالها ، خفرها ودلالها ،

يفتر ثغرها عن ابتسامة الهادئ المطمئن ويودعها أهلها
وداع السعيد الظافر ، فان ابنهم قد نالت خيراً وخلداً
وهم بلغوا من ورائها زهواً وفخراً

يعنيك بعد هذا أن تعلم ، وثق في هذا العلم الذي
أحاول أن أجعله علماً بأن حديثي معك ليس تاريخاً وإن
سرقته لك من التاريخ ، وليس أدباً وإن صغته لك في
أسلوب الأديب ، ولكنه حديث يعني بالواقع لا بتاريخ
الكتب والباحثين ، يعنيك أن تعلم أن أمة النيل ليست
سكان مصر والسودان وحدهم ، بل هم سكان هذا المجرى
القديم الفتي الذي لا يمرض ولا يتعثر ، وأن سكانه
جماعة واحدة ينبغي أن تعيش في ظل تاريخها ودينها
وتقاليدها الواحدة يرفرف عليها علم واحد هو علم النيل ،
فاذا لم يكن من مجارة السياسة وأساليبها فأن أقل ما يجب
أن نعلمه ونذكره هو هذا السهل المنبسط الذي يضم في
عطفه مصر والسودان ، فأن الجامعة بينهما صادقة الحس
والمعنى ، عرفها القدامى فاعتبروا الأرض السوداء مصر
والسودان ، كما ذكرت التوراة هذه الوحدة تأكيدياً
للوواقع الملهوس : هم شعب واحد في جنسهم منذ أبدع

الله الأرض ومن عليها ، ومنذ عرفوا المدينة الأولى
وعبدوا الآلهة المتباينة في وثنيهم القديمة ، فقد كان إله
النيل (رع) يتمتع بمقام جليل في السودان ، وكانت
آلهة الجنوب كأوزوريس بقسمات وجهه الفاتنة وبشرته
السوداء ينعم بالتقدير والاعتبار في الشمال ! ولما عرف
الشمال المسيحية الكريمة عرفها الجنوب بدوره تلبية
للروح الذي يملئ الوحدة والمزاج ، فاذا ما انتهوا اليوم
إلى الإسلام دين الحق القويم أصبحت المدينة الإسلامية
رمز حياتهم الاجتماعية والأدبية ، وأصبحت الروابط
الاقتصادية التي صاحبت تاريخ السودانين والمصريين
عاملاً قوياً حياً يوجب وحدتهم في ظل علم واحد ما بقي
الكون وبقي في الكون إنسان .

ونحن نرد هذا كله إلى النيل ، فلا ينبغي أن نغفل في
حياتنا قدسيته وجلاله فأن من ينسى أصل نعمته قد كفر
بوجوده ، ومن يكفر بوجوده لا يستحق نسمة الهواء
ولا جرعة الماء ولا حياة الأحرار ...

السودان القديم

ليس في العالم شعب متفق المزاج كمصر والسودان ،
وليس في العالم شعب بتره الاستعمار الحديث كأسرة
النيل ، فنحن اليوم مفروض علينا أن نكون شعبين —
مصر والسودان — ولو أننا رجعنا بالسودان القديم ،
وذكرنا طرفاً عن مملكة أيثيوبيا (١) ؛ وبدأنا بهذه المملكة
كالعهد الأول للسودان لعرفنا كيف نشأت مصر
والسودان قطعة واحدة لا اختلاف بينهما في أساليب
الحكم وفهم الحياة .

بيد أنك ستقرأ طرفاً من الحروب التي قامت بين
الشمال والجنوب ، وأنا أعلم كراهية الناس لذكر الحروب
والسنوات التي قامت فيها ، لذلك رغبت عن ذكر
كل الحروب واقتصرت فيها على ما يهمنا ويصل حبال

(١) هذا لفظ أطلقه اليونان على كل بلاد يسكنها السود وعميقو
السمة وتعرف باسم كوش عند قدماء المصريين

الماضى بعضه بعضاً ، دون أن يضطرب ذكر الحوادث
وتسلسل الأخبار .

على أن في ذكر حوادث الحروب سقطة في جبين
وحدة النيل ! هكذا يرى بعض مؤرخي الفرنجة من الذين
يهمهم تسوية هذه الوحدة ، ويستدلون من حروب
الماضى على استحالة الوحدة في تاريخنا الحديث ، ولكنني
أحب أن أذكر لك من تاريخ أوروبا نفسها ما يهدم
رأى الفرنجة في هذه الناحية ، فأؤكد أن هذه الحروب
القديمة كانت واجباً تمليه العواطف الوطنية والمصلحة
المتبادلة ، ولنا في ذلك نظائر ، ففرنسا في تاريخها الأول
كانت مقاطعات متنافرة غير منسجمة حتى سخر الله لها
قوماً عرفوا ضرورة الوحدة التي تمليها العواطف الوطنية
والمصلحة العامة ، فظهر ريشيليو وغير ريشيليو ، يعملون
لهذه الوحدة بالسياسة والدهاء مرة ، وبالحديد والنار
مرة أخرى ، حتى تمت لفرنسا وحدتها ، وأصبحت اليوم
شعباً كفيلاً بالحياة .

وكذلك كانت ألمانيا وإيطاليا ؛ عمل بسمارك على
توحيد ألمانيا ، وكان رجل بروسيا وهي إحدى

المقاطعات الألمانية يتوق إلى هذه الوحدة ، وينشد فيها
أمن البلاد وسلامتها ، فسعى حتى وفق إلى ما يريد ،
وأصبحت ألمانيا منذ سبعين عاماً أمة لها خطرها
في أوروبا وجلالها في الحياة العامة في العالم جميعاً ؛
كذلك خطت إيطاليا هذه الخطوة الموفقة في أيام ملك
بيدمنت ، أعظم حكام مقاطعات إيطاليا المفككة ، وقد
شمل بعطفه رجال الوحدة الإيطالية كازيني وغريالدي
وكافوز ، وبعون هؤلاء الثلاثة انتقلت إيطاليا من التعبير
الجغرافي إلى الوحدة السياسية الموفقة ، والامبراطورية
العظيمة الشأن ، الجليلة الخطر التي أكمل لها سلطانها
السيور موسوليني عظيم الإيطاليين ورجل الامبراطورية
من غير منازع

كان من سخزية التاريخ أن تعيش فرنسا وإيطاليا
وألمانيا تعبيراً جغرافياً ، لا وحدة فيها بالرغم من
الاحساس واللغة والعادات والتقاليد ، كذلك كان من
العبث — ولا يزال العبث حياً — أن يعيش شعب النيل
مفككا بالرغم من الاحساس واللغة والعادات والتقاليد
المتفقة أكثر مما نراها في ألمانيا مثلاً ، فالمصريون

والسويديون لغتهم واحدة ودينهم واحد بينما لغة أهل الشمال في ألمانيا أو بلجيكا غيرها في أهل الجنوب ، ودينهم مختلف المذاهب وناسهم يتكفون لهذا الاختلاف كثيراً من الضيق والارهاق ؛ وبعض دول أوروبا الموحدة تنقسم في لغاتها وأديانها بل في أجناسها أيضاً كسويسرا ولكنها مع ذلك أمة يضمن سلامتها الجميع ! لذلك كان من العجيب المر أن يقال هناك مصر وهناك السودان ؛ وأن يبقى الاستعمار عقبة في طريق هذه الوحدة التي أرادها الله لشعب النيل .

على أن في ذكر تاريخ السودان القديم واجباً علينا نحو النشء وإن كنت لا أميل إلى الأطالة فيه مغبة أن يثقل بك الحديث فتصرف عن القراءة ، وليست غاية الكتاب أن يصرفك عن رجائنا في نشره ! ولعل في ذكر شيء يسير عن « نوات ميامون » بعض العزاء فيما يثقل عليك ذكره ، هذا الملك العظيم القدر ، العزيز الجانب ، قام ملكه في نباتا عاصمة أيثيوبيا ، وبسط سلطانه من العظيرة إلى حدود مصر ، وكان هذا الملك طيب السيرة ، لا يميل إلى الحروب وسفك الدماء ، وكان يحمل في نفسه

إعجاباً عميقاً بمصر وعزها ومجدها التالد ، وكانت مصر في
عهده قد بدأت تهوى عن مكانها المعروف في العالم القديم ،
وما وافت الأسرة السادسة والعشرون حتى جاء في أعقابها
بؤس مصر وشقاؤها ، فتطلع إليها أهل آشور ، ووقف
لهم أهل أيثيوبيا بالمرصاد ، ولكن الأمر انتهى باحتلال
الآشوريين لمصر ، ومضوا في احتلالهم لها فترة من الزمان
سأت فيها سيرتهم ، وتعاقب حكمها في ظلهم ، وتباروا
في الجور والعدوان ، وأراد الله أن تدول دولتهم فحتموا
غزوهم بانبيار سلطانهم على أيدي نفر منهم تنازعوا البقاء
الرخيص .

خلا الجو لأيثيوبيا ، ومصر لا تزال في ضعفها غير
قادرة على عدوان غيرها ، إلا أن « نوات ميامون » أحس
في اقتناص الفرصة وغزو مصر جريمة يرتكبها إن هو
أقدم عليها ، وقد جرى الأيثوبيون على وضع مصر من
أنفسهم موضع التقدير والاعتبار ، يأخذون عنها حياتهم
وجهادهم وفهمهم للحياة . وكان أهل مصر وكهنتها لا يرون
في أيثيوبيا بلداً غريباً عنهم ، فهم يعرفونها ويعرفون عاصمتها
نباتا ، فيها مبانيهم وآثارهم ، ومعالم حضارتهم ، وقد علموا

أهلها فاحسنوا تعليمهم حتى استطاعوا كلهم أن يقلدوا حكم
مصر ويقيم لنفسه ملكاً مثله .

وانحطت نباتا وعبث الزمان بملوكها كما انحطت طيبة
وعبث الزمان بملوكها، وقام قبيل ذلك الوقت ملك له قدره يقال
له أبسمتيك أسس أسرة مصرية عظيمة ذات خطر وكان
هذا الملك معاصراً لليونان فوفدوا إلى مصر زرافات
ووحداً وأكرّم وفادتهم ، وجعل كثيراً منهم في جنوده
وحاشيته ، فأغضب ذلك الجند المصريين ، وكبر عليهم
أن يكونوا ذليلاً لهؤلاء الدخلاء وهم الأصل والدعامة ،
وكان الملك قد وضع الجند المصريين عند الحدود في
الشرق والغرب والجنوب ، فعز عليهم هوانهم ، وآثروا
الارتحال عن مصر وتوجهوا إلى النوبة حيث استقبلهم
ملكها وأقامهم حيث يستحقون من جيشه وأهل مملكته
وكان ملك النوبة يشكو جيرانه في الجنوب ، أولئك
الذين أثقلوا عليه وناجزوه كثيراً وعكروا صفو
حياته فوجه اليهم جنود مصر ، فقطعوا دابرهم وسحقوهم
وأراحوه منهم فزاد فرحه وإعجابه بهم وأكرّمهم فاستقروا
في بلاده ، ونشروا في ربوعها حضارة مصر وعلومها

وفنونها ، فنهضت مملكته في دولتها المروية المعروفة ،
واستقام أمرها بعد عوج ، وأصبحت في عداد الدول
التي يذكرها التاريخ القديم بالآجل والأكبر

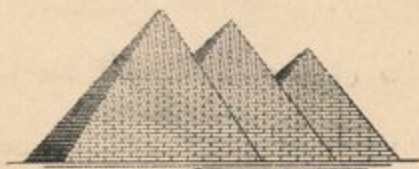
ثم كان أن غزا قبيز مصر وانتهى إلى جنوبها ،
وطمعت نفسه في بلاد أيثيوبيا فأرسل إلى ملكها وفداً
يحمل الهدايا الكثيرة ، وكان يرجو من وراء هذا أن
يتعرف على أخبارها حتى يعد لها العدة ، وكان قد
سمع أن أهلها أهل حرب ، وأن ملكها شجاع مقطوع
النظير ، خطير الشأن ، كثير الجند ، فاذا أقبل الرسل
قدموا إلى ملك الأيثوبيين هداياهم ، وفيها ثوب أرجواني
وأساور من ذهب ، وكانوا يأملون أن يفرح بها هذا
الزنجي الأسود ! فرأوا من أمره عجباً ، ذلك أنه أدرك
غرض قبيز فقال لوفده « إن قبيز قد طمع في بلادى
فأرسلكم لتجسسوا أخبارى فهو ليس بعادل ؛ ولو عدل
لما طمع في غير بلاده ، ولا حاول استعباد أمة لم تسيء
إليه في شيء » ثم تناول قوساً كبيرة ووترها ثم قال « خذوا
هذه القوس إلى ملككم وقولوا له إن ملك الأيثوبيين
ينصح ملك الفرس بأن يعدل عن رأيه حتى يصير الفرس
قادرين على وتر قوس هذا حجمها بهذه السهولة »

هناك عاد الرسل إلى ملكهم قميز ، وحذروه مغبة
هذه الحرب التي يريد أن يدفع بلاده إليها ، بيد أنه
أحسن في كلام ملك الأيثيوبيين إهانة لا يغسلها إلا الدم ؛
فسير الحملة إليه فكانت شراً عليه مما قدر رسله
وكنهته جميعاً . لم يقدر الملك طول صحراء النوبة ولا
جفافها ، ولا انعدام الخير في ققارها فألقى بجنوده فيها
إلقاء ، ثم بعث طائفة منهم ليخربوا معبد آمون في سيوه
فذهبوا ولم يعد منهم أحد ، ولم يسمع لهم خبر كأن
الأرض انشقت فابتلعتهم ، أو ثارت بهم عاصفة من
الرمال فدفنتهم ، فنالت هذه الكارثة من نفس قميز
وأصابه من هولها غم شديد ، ثم مضى بجيشه في هذه
الصحراء الحزون بضعة أيام حتى نفذ القوت ولما يقطع
خمسها بعد ، ومع أنه قد أغز السير فأن حياته في الصحراء
اضطربت واشتد الجوع بجنده فأكلوا الحيوانات
والعشب ، ثم نفذت حيواناتهم وجيادهم ، فاقترعوا على
بعضهم فمن سقط في اقتراعهم أكلوه ، فلم يجد قميز بداً
من العودة فعاد محزوناً ، مفطور القلب ، مشغول
الخاطر ، عودة حزينة كسيرة كعودة نابليون من

الروسيا ، فكانت هذه الحملة أساساً لانتهيار ملكه فأصابه
الخلل ، وكادت تودى هذه الكارثة بعقله وخاصة بعد
شتمة المصريين به ، فصب غضبه عليهم وقتل أيس
وخرّب معابدهم ثم انطلق إلى بلاده ، وكانت هزيمة
الصحراء قد أثرت في كبده ففطرتة فمات في الطريق .

ثم أقبلت النصرانية على مصر فدخل فيها المصريون ،
واعتنقها أهلها على يد مرقص الرسول ، وتردد صدى هذا
الدين الجديد في السودان ، شأن الأمة الواحدة التي
لا تفرق بين أحاسيسها وعواطفها ، فأنحدرت النصرانية
إلى السودان واعتنقها أهل النوبة . وقامت الخلافات
بين الأقباط في مصر فهاجرت الطائفة المغلوبة إلى أرض
النوبة كما هاجر من قبل جند أبسمتيك المصريون حين
هوان من أمرهم وجود اليونان في جيش الملك ، وكان
بين المهاجرين النصرانيين الكهنة والقسس ، فنشروا
النصرانية في شمال السودان ، كما أقبلت النصرانية في
جنوبه على يد الأحباش فانتشر أمرها وقوى سلطانها
حتى أصبحت النوبة معقلاً خطيراً وملجأً يلجأ إليه القسس
والرهبان والمضطهدون في دينهم .

لقد رأيت مما مريبك أن السودان شديد التأثر بمصر
في عواطفها وشعورها ، كانت مصر وثنية فقلدها الجنوب
في وثنيته ؛ وجعل له آلهة على غرار آلهة المصريين ، بل
جعل له من آلهة مصر ملجأ يلجأ إليه حين تلم به الخطوب ،
وبلغ من كمال وثنيته أن اعترف المصريون بآلهتهم ، كذلك
كان للمدنية المصرية أثرها الظاهر في مدينة الجنوب ،
سواء استقل بنفسه أو اتصل بمصر : ثم أقبلت النصرانية
على مصر وانتقلت الى الجنوب على يد القسس والرهبان
المصريين ؛ وتلقاها السودان في يسر ؛ وسينتهي اليك في
الفصول المقبلة ما يؤكد لك أن العواطف بين الشعبين
عواطف أمة واحدة ؛ ولعل انتقال فرد من دين الى دين
شخص ما ، غاية مما يمكن إظهاره من علائم الحب والتقدير
والوفاء ؛ والسودان في غاياته مرتبط بمصر في دينها
وتقاليدها وعاداتها ارتباطاً لا يتفكك ولا يتجزأ



السودان الاسلامي

كتب إغريقى فى جغرافية النيل قبل ميلاد المسيح
بمائة سنة فزعم أنه ينبع من ثلاث بحيرات فى شمال خط
الاستواء . وخالفه فى ذلك بطليموس المشهور فذهب
إلى أن منابع النيل جنوب خط الاستواء لا شماله ، أما
هومير فأبدع وأجاد وكفى نفسه شر القتال ، وهرب من
بحوث العلماء وزعم أن النيل سيل نازل من السماء !

هذا ما قاله القدماء عن جغرافية النيل ، أما العرب
فكانت عنايتهم بالسودان أوسع وأعمق ، فقد أكثروا
من الكلام على جنوب مصر ، ونحا مؤرخوهم نحواً
خاصاً فى الحديث عن بلادنا الجنوبية (السودان) حتى
لتجد المقرئ يتحدث عنه حديثاً طويلاً مسهباً ، وقد اعتبروه
من بلاد مصر فاستقصوا أخباره على الرغم من أنه كان
خارجاً عن الجامعة العربية المعروفة فى ذلك الزمان ،
بيد أن الحديث عن مصر فى عهد العرب هو حديث عن

السودان أيضاً ؛ وقد عنى الجغرافيون من العرب
بالسودان عناية مؤرخيهم به ، فذكر الكندي في « تقويم
البلدان » في وصفه ورسمه لخرائطه شيئاً غير يسير عن
النيل فقرب من الحقيقة حين زعم أن منابعه في جبال
القمر في جنوب خط الاستواء ، وقال إن مياه النيل
تجري في ينايع من تلك الجبال إلى بحيرتين واسعتين
تصبان في بحيرة ثالثة منها ينبع النيل ؛ وهذا كلام يقرب
من الحقيقة إلى حد بعيد .

لم يدخل السودان كله في المجموعة العربية وإنما
دخل شماله فحسب ، ذلك أن موجة الاسلام امتدت من
مصر حتى عمت النوبة واتجهت عن طريق الدعاية إلى
أن بلغت النيل الأعلى ؛ وليس معنى هذا أن شمال
السودان هو وحده الذي تأثر بالاسلام ، بل إن الواقع
يؤكد أن الدين القويم أخذ طريقه من مصر إلى أقصى
الجنوب في السودان ، ولكن تأثر الشمال كان أبعد
وأعمق من أقاصي الجنوب .

وقد ذكر المقرئى والبلاذرى في فتوح البلدان
طرفاً من تاريخ السودان وعلاقات مصر به منذ فتح

النوبة عمرو بن العاص وأعقبه ابن أبي السرح حتى
دنفلة (١) ، وإنك لتحس في تضاعيف كلام مؤرخي
العرب إلتماسهم الوحدة لوادى النيل في علاقاته السياسية
والاجتماعية والدينية ، ولكن الثقة من مؤرخيهم
وغيرهم من الفرنجة يؤكدون كذلك العلاقات السياسية
بين مصر والسودان في تلك الأيام ، وهي علاقات قامت
في أغلب الأحيان على الفتح والغزو ، ولكنهم يذكرون
أن السودانيين لم يعتنقوا الاسلام جميعاً ولم يتخذوا هذا
الدين عقيدة لهم ، بل اقتصر أمر الاسلام على الجهات
الشمالية والوسطى من بلاد السودان .

ثم كان أن انصرف أهل مصر عن بلاد العرب ،
واستقلوا بأنفسهم من أيام الفاطميين ووقفى على آثارهم في
الاستقلال بمصر الأيوبيون والمماليك ، ولم يكن بد لهؤلاء
الحكام المستقلين من وصل السودان بمصر جرياً على
عادة السابقين من حكامها سواء قام هذا الوصل على حد
السيف أو بطريق التفاهم والسلام ، فالتفتت هذه الدول

(١) ويسمى العرب دمقله جاء في وصف الحرب بين العرب وأهل النوبة
لم ترد عيني مثل يوم دمقله والخيول تعدو بالدروع مثقلة

المتعاقبة إلى هذا الشطر الثاني من بلاد مصر فوجهوا عنايتهم إلى فتحة بجنودهم أو بدعائيتهم واستمرت فتوحاتهم بلا انقطاع طوال أيام الفاطميين ، وقد اهتم الفاطميون (١) بفتح السودان خاصة لأسباب تتصل بكيانهم فهم كما نعلم في نظر المسلمين السنيين مغتصبون للخلافة ، وهم في نظر أنفسهم أصحاب حق لأنهم انحدروا عن فاطمة بنت النبي وزوج علي فهم أولى الناس بالخلافة ، لذلك تعتبر ثورتهم وانتقال الخلافة إليهم حدثاً جديداً في الإسلام ، وهذا الحدث يتطلب من القائمين به الذود عنه بشتى الأساليب ومختلف الطرق ، لذلك عمد الفاطميون إلى إغراء الشعراء والكتاب للوقوف بجانبهم وشد أزركم ، وعمدوا إلى الشعب يغرونه مرة باللين ويعالجونهم مرة بالعنف والشدّة ، وقد ترتب على نشر هذا المذهب الجديد أن غنى أصحابه بأمر البلاد القرية من مصر والمحيط بها ، فنشروا دعوتهم في الشام وبلاد العرب وشمال أفريقيا وغيرها ثم وجدوا أن أولى البلاد بنشر دعائيتهم فيها ما كان قريباً

(١) «الفاطيون في مصر» للاستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن

من مصر ، ومعتبراً في نظر العلم والتاريخ جزءاً متما
للبلاد المصرية ، فقصدها إلى السودان بدعايتهم ينشرون
فيه دعوتهم وأساليهم في الحكم وأخذ الحياة ، ولم تقف
غزواتهم فيه لأن أهل السنة في مصر ممن عظم عليهم
سلطان الفاطميين وشق عليهم حكمهم هاجروا إلى بلاد
النوبة واستوطن بعضهم فيها ، فكانوا أشبه بالمهاجرين
الانجليز الذين أنشأوا أمريكا الحديثة ،

ثم جاء حكم الأيوبيين وعلى رأسهم صلاح الدين ،
وكان صلاح الدين يوجس خيفة من سيده ومولاه
نور الدين ، وكان يرغب رغبة شديدة في الاستقلال بمصر ،
وكان يرجو أن يكون له حصن آخر يلجأ إليه هارباً أو
معانداً لو انكشف أمره وعرف بخيئته نفسه نور الدين ،
ففكر في اليمين حصناً يهرب إليه وقت الحاجة ثم عدل
عن ذلك لبعد الشقة بين مصر واليمن ، ولصعوبة تهية
الجلولة هناك ، ثم اهتدى في آخر الأمر إلى بلاد النوبة
فأرسل إليها أخاه شمس الدين توران شاه بن أيوب ٥٦٨ هـ
فهزم أهلها وامتلك بعض قلاعها ، وعسكرت فيها جنوده ،

حتى إذا مات نور الدين ولم يعد أمام صلاح الدين هذا
السيد الخطير الذي كان يهدد نفسه حصناً ليهرب منه وقت
الحاجة ، عاد فسحب الجنود المصرية من بلاد النوبة
وهكذا مضى المماليك على غرار من سبقهم فسيروا
الحملة لغزو السودان ، وفرضوا عليه الضرائب ،
وجعلوا على النصارى ضرائب أخرى مما كان داعياً إلى
إسلام كثير منهم ؛ ثم كانت أيام المنصور قلاوون وهو
من أعظم المحاربين الذين ظهرُوا في العالم الإسلامي ،
فوجه إلى النوبة جنداً عظيماً من قبائل أولاد أبي بكر
وأولاد عمر وأولاد شريف وغيرهم إلى دنقلة وغيرها
من بلاد السودان .



بمالك السودان الإسلامية

عرفنا ما كان من هجرة العرب والمصريين إلى بلاد
النوبة ، ونشرهم الاسلام فيها ، وعرفنا أن شمال السودان
انتقل بهذا التطور البطيء إلى الجامعة الإسلامية وأصبح
جزءاً منها يعنى به المؤرخون من المسلمين كالمقرئزى
وابن عبد الحكم وابن خلدون والسكندى ومن إلى هؤلاء
من أئمة المؤرخين ؛ ورأينا كيف بدأ فقهاء المسلمين
يهاجرون إلى هذه البلاد ويعلمون أهلها الدين واللغة
حتى استقرت الحضارة فى هذه البلاد وعظمت الصلة
بينها وبين بلاد العرب ، وقامت « عيذاب » على ساحل
السودان وقوى أمرها حتى قال المقرئزى فيها « وكانت
من أعظم مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن
تخط فيها البضائع ، وتقلع منها مراكب الحجاج الصادرة
والواردة » وذلك لأنها كانت تقابل جده فيبحر منها
الناس عرض البحر الأحمر فى يوم واحد ؛ وعرفنا

كذلك أن النصرانية انحدرت من النوبة إلى الجنوب
واستقرت هناك نحو ألف سنة أخرى .

ويحذر بنا الآن أن نتقصى أخبار دولة قينة بالتقدير
قامت بالسودان وشغلته بنشاطها وكان لها فيه شأن
عظيم، ذلك أنها استمرت قائمة حتى أدر كها العصر الحديث
فقابلت الفاتحين من مصر وأوروبا وانتهت بذلك حياتها،
ومعنى هذا أن السودان لم يكن خاملاً في العصور الوسطى
كما يخیل إلینا بل كان حاله كحال مصر في تلك السنين، كان
دائم التجدد دائم النشاط، قامت فيه دول عربية أصلاً
وسودانية طبيعة وتأسيساً، وعملت في جد لنشر العربية
والاسلام وإدخال السودان حتى السوباط في المجموعة
العربية الاسلامية، فكان اذن حظ السودان في نشر
الاسلام ومدنية العرب أعظم من حظ مصر في هذا
المضمار، ذلك أن أهلها كانوا يقاسون الأمرين من
ظلم الممالك العتاة وإدارة الاتراك المضطربة، وكان
السودان قد كتب له ألا يدخل في حظيرة الاتراك ولا
ينخضع لسلطانهم فظلت معالم الانسانية والخير قائمة فيه في
حين انتفت هذه المعالم الطيبة في جميع البلاد التي كتب
لها أن تدين للاتراك

وقد رغب السلطان سليم في فتح سنار فلم يوفق
أو قل إنه انصرف عن هذا المجهود الشاق فرجع عنها بعد
أن كان له مع ملكها حديث مشهور ، وأدركت مملكة
سنار أنها وقد خلصت من حكومة الأتراك ينبغي أن
تتصل بالعالم الاسلامي رأساً من غير وساطة العثمانيين ،
فاتصلت بجدة ومكة والمدينة فوفد عليها العلماء والمتدينون
والعرب من كل صقع وانتشروا في بلادها ، والعربي
السليم العنصر صحيح الايمان شديد التمسك بالأخلاق
القومية ، حريص جد الحرص على الدين ، شجاع في حربه
وسلمه ، يميل إلى التضحية والحرية والبساطة والاثار ،
فأثرت هذه الصفات العظيمة في إقامة ملك سنار ورفع
مناره وعظمة ملوكه الذين يعرفون بملوك الفونج .

يختلف الناس في أصل « السناريين » ، فيذهب الشيخ
عبد الدافع صاحب تاريخ الفونج إلى أنهم أخلاط من
السودانيين تتجوا من تزواج قبيلة سودانية كبيرة مع
قبيلة من عرب جهينة تعرف بالقواسمه ، ويتفق الكثيرون
على أنهم فروا من عسف العباسيين إلى هذه البلاد
وأقاموا فيها هذا الصرح العظيم ، ولعل الشيخ عبد الدافع

أقرب إلى الحقيقة في تخريجه لأصل السناريين من هذه
الأسطورة التي لا تجد في تاريخ الواقع الملبوس ما ينهض
دليلاً على صحتها.

قام مُلك الفونج في سنار، وكانوا مسلمين يميلون إلى
الاستعراب، فاتخذوا لغة العرب وأسماءهم، واستمرت
دولتهم عزيزة الجانب ثلاثة قرون تقريباً من ١٥٠٥ إلى
١٨٢١ م ملك فيها سبع وعشرون سلطاناً اشتهر أكثرهم
بالشجاعة والفتح والتقوى وتشجيع العلم والعلماء المتفقيين
في علوم الدين، وقد تشبهوا في حكومتهم بالخلفاء المتأخرين
فاستوزروا الوزراء، وصارت لهم مجالس للحكم، وأصبحوا
يولون الوزراء ويعزلونهم على مثال ما كان في مصر
الفاطمية حتى لقد استوزر أحدهم خمساً من الوزراء.
واشتهر في أيامهم نفر من رجال الصلاح والتقوى
كالشيخ ادريس ابن محمد الأرباب وكان ولياً له معجزات
منها أنه ظهرت في جنوب النيل الأزرق ذراع بشرية بارزة
من الماء مفتوحة الأصابع، فدعر الناس منها، وأسرعوا
إلى الشيخ يسألونه في هذا فخرج حتى أشرف على النهر
فلما بصر باليد رفع يده وبسط إصبعه فاخفت اليد في الماء

ولما سئل في هذا قال : إنها تشير إلى قوة الاتحاد ، وكيف
أن اتحاد الأصابع الخمس يعجز الماء عن أن يفرقها ! وفي هذا
القول معنى لا يغيب عن دولة مستقلة يرى شيوخها أن بقاءها
رهن باتحاد بنينا فيرمزون لما يرون من أشياء إلى هذا المعنى
السامى النبيل ، وهذا تفكير قوم بلغوا من سلامة التفكير
والحرص على البقاء الحر درجة عظيمة لأن في أقوالهم
وتخريجهم لشؤونهم العارضة حباً لبلادهم وحرصاً على
وحدتها .

وقد وجه ملوك سنار جهودهم الى الحرب ابتغاء
نشر راية الاسلام ، وكان جهدهم منصرفاً الى غرب النيل
حيث كانت الوثنية قائمة تمتنع في جبال دارفور وهضاب
كردفان تحميها القبائل كقبائل الشلوك .

وكان ملوكها يحرصون على حسن الصلة بمصر
ويحاولون الانتفاع بعلمائها وفقهائها وقد رووا في ذلك
قصصاً كثيرة منها أن الملك بادى أبازين ١٦٤٣-١٦٧٨ م
كان يرسل الهدايا الى علماء مصر حتى مدحه بعض شعرائهم
بقصائد قيل في إحداها .

أياراكباً يسرى على متن ضامر
إلى صاحب العلياء والجود والبر
لك الخير إن وافيت سنارقف بها
وقوف محب واتهز فرصة الدهر
وأهد سلاماً عطّر الكون نشره
ألد من الماء المسلسل والقطر
إلى حضرة السلطان والملك الذى
حمى بيضة الإسلام بالبيض والسمر
هو الملك المنصور بادی الذى له
مدائح قد جلت عن العد والحصر
ومهما يكن من قوة هذه الآيات أضعفها فهى دليل
على صلة مملكة سنار بمصر ، ودليل آخر على أن بادی
هذا كان عادلاً مصلحاً ، بنى بسنار مسجداً جامعاً وأقام
لحكومته قصرأ من خمس طبقات؛ وشاد مخازن للأسلحة
والذخائر؛ وبنى خارج القصر مكاناً يعرف بدكة من
ناداك يلجأ اليها المتظلمون فيخرج اليهم الملك ويجلس
عليها ويقضى للناس فى ظلاماتهم .
وكانت ملوك الفونج حروب طويلة مع بلاد الحبش؛

ولا غرابة في هذا فالسناريون مسلمون فيهم حماسة الدين
والدنيا والأحباش نصارى، ولا بد لحرارة الإيمان بالاسلام
من حرب النصارى العريقين في نصرانيتهم ، واشتدت
الحرب وطالت بين السناريين والأحباش ، وانتهت
باتتصار سنار نصراً مبيناً أذاع صيتهم في مصر والشام
وتونس والحجاز والهند ، وأقبل المهاجرون الى سنار
يعيشون في ظل ملكها القوى المصلح .

ولم يكف ملك الفونج عن الحرب ففقسى بحرب
الحبش حرب كردفان فبعث اليها جيشاً قوّد عليه عدداً
من كبار قواده يئد أن أهل دارفور هزموه فارتد عنهم،
ثم عاد فأقام على الجيش رجلاً اسمه اللكيلك وكان
قائداً ماهراً فانتصر على الكردفانيين ، ولكن أخباراً
سيئة ترامت إلى هذا القائد الماهر فانقلب على سيده ؛ ذلك
أن بادی قتل سيد علماء سنار في هذا الزمان وهو الخطيب
عبد اللطيف البغدادى ، واستبد الملك بعد ذلك بالأمر
ففتح أهل البلاد الأصليين عن مراكز الإدارة والجيش
وولى مكانهم أجناب من عبيده ؛ فثار ابن اللكيلك على
الملك وجمع جيشاً عظيماً وسار إلى سنار ونفى الملك بادی

إلى سوا كن وأقام مكانه ابنه ، ومنذ هذا التاريخ خرجت
السلطنة من أيدي الملوك إلى الوزراء وأخذت دولتهم
تنحط حتى انتهت إلى مثال من الفوضى والاضطراب .

وقد أراد الفوننج في يوم ما أن يسيطوا سلطانهم على
أهل الشمال ففضوا حتى أدركوا الشلال الثالث ، وكان
الأتراك قد أقاموا على هذه البلاد رجلا من الغز اسمه
ابن جنبلان فأعد العدة لحربهم وأوقع بهم هزيمة منكرة
سال من دماء الفوننج فيها ما ملأ بركة واسعة عرفت
بحوض الدم .

فخلفاتهم الداخلية ، وهزيمتهم عند الشلال الثالث ،
كل ذلك أضعفهم ، وزاد ضعفهم ظهوراً ثورة القبائل
الخاضعة لهم وخروجها عليهم كقبائل الهمج والتكارنة
وكانوا عضد الدولة ، واندلعت بينهم على أثر هذا الحرب
الداخلية ، وزاد الطين بلة انتشار الأوبئة في البلاد ، ولم
ينقذ السودان من هذه الفوضى غير الفتح المصرى على
يد اسماعيل بن محمد على سنة ١٨٢١ م

سلطنة الفور

عرفنا ما كان من سيرة ملوك الفونج وقيامهم في سنار ، وعرفنا كيف وفق هؤلاء الملوك إلى إحياء تلك الجهات وبث نواحي النشاط فيها ، وإدخالها في المجموعة العربية الإسلامية ، بقي أن أحدثك بعد هذا عن سلطنة أخرى قامت إلى غربي النيل في سهول دارفور تشبه إلى حد كبير مملكة سنار ، فقد عرفت أن الفونج يرجعون بنسبهم إلى بني أمية وأنهم عنوا بربط الصلة بينهم وبين مصر وبلاد العرب حتى يوفروا لدولتهم ما يلزمها من الحضارة المصرية والدين الاسلامي

على غرار هذه الدولة قامت سلطنة الفور في دارفور في بدأ القرن التاسع الهجري ، وكأنها أبت أن تكون أقل من جارتها شرفاً فنسبت نفسها إلى العباسيين ، وقصوا في هذا قصصاً هو أقرب إلى الأساطير منه إلى الحقيقة خلاصته أن فتى عباسياً اسمه أحمد فرّ من بغداد واستقر في سهول دارفور واتصل بملكها فأعجب به وزوجه من

ابنته فكان هذا مبدأ سلاطين الفور . وظاهر من هذه
القصة أن أهل تلك الجهات يعنون عناية شديدة بأن
تكون أنسابهم منحدره من بيت عربي أصيل أو من
بيت النبي الكريم ، وقد تصل بهم الرغبة في الظهور
والغلو إلى أن يدعوا المهديّة أو الألوهية ، ومجمل القول
أن سكان تلك الجهات شديدو التعلق بأنسابهم العربية ،
وفي هذا دليل على تعلقهم بالأسلام وحبهم للعرب
وتقديرهم لهم .

تعاقب على سلطنة الفور ستة وعشرون سلطاناً ،
اشتهر أكثرهم بما عرف عن أهل هذه البلاد بالتقى
والورع وحب الحرب وتعلقهم بالشجاعة واتصافهم
بالأقدام ؛ وكانوا إلى هذا رجال سياسة ودهاء ، فقد
صانع أحدهم المسمى عبد الرحمن ١٧٨٧ - ١٨٠١ م
نابليون بونابرت ، وحاول كسب جانبه ضد المماليك
الذين انحدروا إلى الجنوب من مصر وهددوا مملكته ،
ومن مراسلات عبد الرحمن لنابليون تفهم أن هؤلاء
القوم كانوا من النضوج واليقظة بحيث فهموا ما يدور
حولهم من الناحية السياسية فسهروا على مصالح دولتهم

دون اعتبار للمسائل الدينية البحتة التي قد تؤثر على كيانهم
كأمة مستقلة ، فقد تفاهموا مع الفرنسيين وهم من
النصارى على الممالك وهم من المسلمين ، فاستعدوا الأولين
على الآخرين ، وفي هذا بعد النظر واستقامة الرأى ودليل
النضوج والاستواء .

وملوك هذه الأسرة في العدل سير مشهورة في
السودان فقد ذكروا أن السلطان عمر الثاني
تهيب أن يجلس على العرش مخافة أن يظلم فألح
عليه الناس حتى قبل بعد أن اشترط على الحكام العدل
والأمانة وحب الرعية ، فإذا بلغه أن ثلاثين من عماله
يظلمون الناس ويثقلون عليهم أمر بهم فحملوا إليه فذبحوا
جميعاً ؛ وكالذى حكوه عن ملك آخر ألحت عليه زوجته أن
يعزل ابنه الأكبر إسحق ويؤثر عليه في الولاية ابنها
أحمد ، فعرض عليها أن يمتحن شجاعتهما فأكثرهما شجاعة
أولى منه بالرعاية والأئثار .

وفي مجلس عرشه بعث في طلب ولديه ، وكان
لحجرتيه بابان ، باب للرجال وباب للنساء ، وكان في
حراسة باب الرجال أسدان ، فأما إسحق فدخل من باب

الرجال ولم يخش الأسدين ، وأما أحمد فقد أسرع من
باب النساء ، وسكتت أمه بالرغم مما لها من حظوة
عند أبيهما !!

وعنى الكثيرون منهم بأقامة المساجد كالسلطان
سليمان أول سلاطين هذه الأسرة ، ولعل هذا
راجع إلى حكمة ملوكهم ورزانتهم وحبهم للدين ورغبتهم
في إعلاء شأنه ؛ وقد كان لهؤلاء الملوك صلات طيبة
بسلاطين آل عثمان فقد قيل أن السلطان عبد الرحمن
أرسل إلى سلطان الأتراك كتاباً لقبه فيه بالرشيد وأهداه
هدية من العاج والريش ، وقد اشتهر ذكر عبد الرحمن
هذا لعنايته بالعلم والعمارة ، ولأنه وسع نطاق التجارة
وعمل على نشر الاسلام واستقدم العلماء من كافة الأقطار ،
وقد ذكر لنا السائح الانجليزى براون الذى زار دارفور
١٧٩٣ شيئاً كثيراً عن تلك البلاد .

كذلك اتصل محمد على الكبير بسلاطين دارفور ،
وبعث إلى سلطانهم محمد الفضل خطاباً يسأله فيه أن
يدخل فى طاعته فرد عليه الفضل بكتاب (١) نورد لك

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير ص ١٣١ جزء ثان

مقدمته ففيه اعتزاز بالنفس وكبرياء يصعب فهمها لولا التماس الصدق في نوايا صاحبها

« الحمد لله الذي حكم بين عباده بالحق قطعاً ، سبحانه يحزى
كل نفس بما تسعى ، واليه المعاد والرجعى ، وهو حسبي وكفى
» من حضرة من أمن الله به البلاد وجعل ملكه مسموعاً من
كل أحد وصيره في قلوب الأعداء ناراً تستعر وجرماً يتوقد ، وجعل
الله على يده ضرب من طغى وتمرد ومن ضل وتغنى وهو شاب
صغير السن ولو صار كهلاً لخصعت له الانس والجن وقد اشتهر
بالكرم والجود وحال بعوارضه أنجم السعود ، وان قامت الهيجا
بنفسه يجود ، ويصل الى الأعداء بقواطع الهنود وينتصر بعون الله
على كل موجود ، هو مولانا السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن
الرشيد أعزه الله .

« الى حضرة الكوكب العالى والنير المتلالى بهجة الانام
وقدوة اللبالي صاحب العز والافتخار أخينا العزيز محمد على باشا
سليكم الله تعالى من المحذورات واستعملكم بالباقيات الصالحات
بمنه وكرمه » .

وخلف الفضل هذا ابنه السلطان محمد حسين ، وكان
معاصراً لسعيد باشا ، وكان بين الاثنين مودة وصفاء
فأهداه سعيد مركبة بجوادين ، فتخوف منها ولم يركبها ،
وأهدى إليه اسماعيل الهدايا الكثيرة ، ولكنه كان كثير
الرية فأدخل الأسلحة النارية ليستعوض بها جنده عن
السكاكين والنشاب .

وكان آخر ملوك هذه الأسرة السلطان ابراهيم وكان
ملكاً عادلاً كريماً محبوباً ، بقى على عرش دارفور حتى
قتله الزبير باشا فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧٥ . فأذا
ما استولى المصريون على سلطنة دارفور قبضوا على
عدد من أمراءها وأرسلوهم إلى مصر وأنزلوهم حى سوق
السلاح وأجروا عليهم المرتبات كأنهم أسرى أو منفيون
وكان سلطان دارفور ممتداً من شاطئ النيل الغربى
إلى حدود اقليم شاد وأوبنجى شارى فشمل قبائل بحر
الغزال ، وقد وكل إليهم حراسة طريق الأربعين الذى
يبدأ من دارفور ويخترق الصحراء حتى يصل إلى
أسيوط ، وكان هذا الطريق صلتهم الوحيدة بالخارج ،
لذلك كانوا أميل إلى المصرية منهم إلى العربية ، وخاصة
بعد أن حال الفونج بينهم وبين بلاد العرب فلم يجدوا
بداً من الاتصال بسلاطين آل عثمان والممالك المصرية
والأسرة المحمدية العلوية فى مصر .

تستطيع أن تخرج من هذا الفصل الطويل فى تاريخ
السودان الاسلامى ببضعة حقائق أولها أن الاسلام

الذى بزغ على الجنوب من الشمال خلق دولا عاشت
أجيالا ، وتستطيع أن تستتج من خلال السطور تقدير
الدولتين السودانييتين للمدينة المصرية فى شتى نواحيها
بحيث اعتبراهامثلا أعلى لهما ، وتستطيع أن تشعر أن
الصلات بين مصر والسودان فى الإسلام هى هى
الصلات التى كانت بين القطرين الشقيقين فى عهد
الفراعنة ، وما يؤكدهذه الصلات الطيبة أن علماء مصر
كانوا يقدون على سنار ودارفور وفوداً كثيرة ،
تعيش فى ظل هاتين الدولتين كأنهم فى مصر تماماً ،
كما نشعر بما لملوك هاتين الدولتين عند المصريين وخاصة
شعراءهم وعلماءهم ، ولعل قصر طريق التجارة بين
الدولتين والخارج على طريق الأربعين مما يدل على
الوشائج الوثيقة بين الشعبين فى كل ما له صلة بحياتهم
المادية والمعنوية .

فتح السودان

استقبلت مصر العصر الحديث على أضواء الحملة
الفرنسية بقيادة أكبر أبطال العصر الحديث ، نابليون
بونابرت ، فكأنها أبت إلا أن تستيقظ على يدى رجل
ممتاز فى القرن الثامن عشر كما استيقظت على يدى أكبر
رجل ممتاز فى التاريخ القديم كله وهو الاسكندر
الأكبر ، ولعلها ملاحظة لطيفة جداً أن يكون لهذين
الرجلين العظيمين هذان الأثران القويان فى تاريخ مصر
القديم والحديث ؛ فتح الاسكندر مصر وحمل فى جعبته
الحضارة الأغريقية الشابة التى قضت على الحضارة
المصرية القديمة قضاء يكاد يكون تاماً ؛ ثم أقبل نابليون
بمدافعه ورجاله وصيحات الحرية ونداء المساواة وإلفات
المصريين إلى مجدهم القديم فاستفادت مصر دفعة واحدة
حتى لقد استعادت فى أربعين سنة ما فاتها فى أجيال ؛
ذكرت ماضيها فى الشام والجزيرة وأثرها الخالد فى النوبة
والسودان ، وتوجهت إلى هذا الرفيق الأخير فأيقظته

إيقاظ الفاتح الصديق ، ولم يكن اتجاه مصر إلى السودان
عفو الخاطر أو قصراً على ذكاء واليها وإنما هي طبيعة
مصر لا تجد عن السودان غناء ولا ترى عنه منصرفاً .

ثلاثة من الأسباب دفعت محمداً علياً إلى هذا القتح
الجديد ، فأما أولها وأهمها فرغبته في المال ، وكانت هذه
الرغبة مفتاحاً لسياسة هذا الوالى الرشيد في السنين
الأولى من حكمه بل في سنوات حكمه جميعاً ، كان يريد
المال للجيش والبحرية ولاصلاحاته العديدة التى جعلها
في خدمة جيشه وبحريته (١) ، ولئلاً جيوب الأتراك
بالرشاوى والهدايا ليسكتوا عنه ويدعوه في سبيله آمناً
مطمئناً ؛ كان محمد على فى أشد الحاجة إلى هذا الذهب
الذى تسامع الناس بكثرتة فى أقاليم السودان ، وإذا
كانت موارد مصر لا تنهض بسد حاجاته الكثيرة فقد
طاف بذهنه أن يفتش عن الكنوز الشائعة فى تاريخ
الشرق ، والمستورة فى باطن أرض فى بلاد السودان
فاختار فرنسياً اسمه الميسيو كايو وأرسله فى نوفمبر ١٨١٦

(١) هذه الناحية من تاريخ محمد على مأخوذة عن الأستاذ العالم

شفيق غربال من محاضراته فى كلية الآداب

ليكشف له مناجم عظيمة للذهب والزمرد قيل إنها توجد
قرب إسنا ، وتصادف أن أفلح هذا الرجل بعضاً ما ،
وعاد بشيء من الذهب والزمرد فقويت نفس محمد على
ووطدها على فتح السودان .

ثم كان محمد على بحاجة إلى الجنود ، وقد يئس من
جنوده الأتراك والأرناؤوط لاضطراب نظامهم وميلهم
إلى الفوضى والعصيان ففكر في جنود السودان
البواسل ، فكر في أن يجلبهم وينظمهم ليتقى بهم شر
الطواريء وما أكثرها في ذلك الزمان ؛ ثم كان يوجس
خيفة من بقايا المماليك التي اعتصمت من نعمته في دنقله
وغيرها من أقاليم السودان ؛ كان يعرف أن المماليك لن
يغفروا له غدره بهم وهدمه لعزهم وأنهم لا بد ناهضون
لحربه يوماً من الأيام ففكر في أن يبعث لهم بجنده
الأرناؤوط ، لعل قتالهم معاً يريحه من العدوين جميعاً !

إلى جانب هذا كان يفكر في تجارة السودان وخيره
ووفرة الماشية وريش النعام فيه ، وكان محمد على قد
احتكر التجارة في مصر على مثال الاشتراكيين وإن لم
يفهم معنى الاشتراكية ولم يسر على تعاليمها تماماً ، لذلك

عهد إلى تجارة السودان ، راغباً في احتكارها لموين
جيشه وأسطوله .

على أن هناك سبباً آخر لفتح السودان حدثنا عنه
بعض المؤرخين ، وهو رغبة محمد علي في ربط صلة مصر
بالسودان كعادة الملوك من أقدم الزمان ، ولكن محمداً
علياً لم يفكر في هذا قط ، ولم يكن عالماً بالتاريخ ليقس
الماضي بالحاضر ؛ بل كل ما يمكن أن يقال إن من طبائع
الأشياء أن يفكر حاكم مصر في ضم السودان إليه سواء
دفعه إلى ذلك حب الفتح والغزو أو دفعه إلى ذلك
إحساس بوجوب وحدة القطرين الشقيقين أو دفعته إلى
ذلك رغبات كثيرة كالتى ذكرت لك طرفاً منها .

تلك هى الأسباب المهمة التى جاشت فى نفس
محمد علي حين هم بفتح السودان ، أما ما يقال من أنه هفا
إلى اكتشاف منابع النيل فأمر لم يدخل فى حساب هذا
الرجل الذى كان يفكر فى سلامة بلاده وتقوية جيشه
وأسطوله قبل العلم والاكتشاف ، وإنما استحسن بعض
المؤرخين أن يضيفوها إليه خيالا منهم أوزلفى إليه ؛
نعم إنه بعث « بيكر » وأعانه على الوصول إلى منابع النيل

يبد أن هذا يرجع إلى رغبة الجمعية الجغرافية الانجليزية
التي أرسلت بيكر وعاونت غيره من المكتشفين .

أقبلت جيوش مصر على السودان وحاله كما رأينا
ضعفاً وارتباكاً ، كان أمر الفونج قد اضطرب وملك
فيهم الوزراء دون الملوك ، وكان سلطان الفور قد تضعع
واشتد في الناس ظلمهم حتى استنجد الكثيرون منهم
بمحمد علي ، وهونوا عليه أمر فتح البلاد والاستيلاء عليها ،
فلم يكن فتحاً حريياً بالمعنى الصحيح ؛ بل كان فتحاً
للحضارة الحديثة تدخل السودان ، تلك المدينة التي كانت
مصر نفسها مقبلة عليها راغبة فيها ، ولم يشعر أهل
السودان بأن المصريين مستعمرون فاتحون كما أحسوا
غداة أقبل الانجليز ؛ لم يستقبلهم بالعداوة إلا ملوك
البلاد وحكامها الذين لا مفر لهم من هذا القتال دفاعاً
عن أملاكهم وسلطانهم ؛ أما الأهليون فقد استقبلوهم
باليمين والطاعة والرضوان . وكان فتح مصر في هذه
الآونة لازماً لا لمصر وحدها بل للسودان أيضاً ، فإن
أوروبا كانت قد بدأت تمد أجنحتها لتطوى إفريقيا
بأسرها ، فكان فتح مصر للسودان إذن إنقاذاً لهذا القطر

من استغلال الاستعمار ، وحريراً له من ربة الأجنبي
ودينه وعاداته ، فلم يصبه ما أصاب الكنفو على يد
البلجيك ولا البوير على يد الانجليز ، ولا شمال إفريقية
على يد الفرنسيين دعاة الحرية والنور والمساواة ! كان
لا بد أن ينتمى السودان لحدى الدول فقامت
مصر بهذا الواجب الذى يفرضه عليها الجوار وصلة
الدم والتاريخ .

طبيعى أن تتوجه الفتوحات المصرية إلى مراكز
القوة فى هذا القطر وهى مملكتا سنار ودارفور وغيرهما من
الإمارات الصغيرة والمدن القائمة التى لا داعى لذكر أسمائها ؛
ولم يكن حرب السودان صعباً ولا عملاً عظيماً ، لأن
الأهالى كانوا يرغبون فى حكم المصريين ، ولأن جنود
الملوك السودانين يقاتلون بالفؤوس والعصى بينما يحارب
المصريون بالبنادق والمدافع وما إليها من معدات الحرب
الحديثة ؛ فلا غرابة إذا هزمت قوات السودان فى كل مكان
مع شجاعتهم وامتنيازهم على منازلهم من الأتراك
والأرناءوط ، ولعل أشد هذه الوقائع وأحقها بالذكر
واقعة فى دنقلة ، خرج فيها حكام السودان بخير رجاله

وفرسانه ؛ وكان قائد الجيش المصرى أحد أبناء محمد على
واسمه اسماعيل ؛ كان محارباً ممتازاً وجندياً كريماً ، قيل انه
وقعت فى يده ابنة لأحد ملوك السودان أسيرة عقب هذه
الواقعة المشهورة فأكرمها وردّها إلى أبيها سالمة موفورة
فشكر له الرجل هذه اليد بالطاعة ورد له المعروف
بالاخلاص والوفاء .

ثم أرسل اسماعيل إلى الملك بادى كتاباً يدعوه إلى
طاعته فكتب اليه محمد عدلان وزير الملك بادى يقول :

« لا يغرنك انتصارك على الجعلين والشايقية فتحن الملوك وهم
الرعية . أما بلغك أن سنار محمية بصوارم قواطع هندبة وخيول جرد
أدهمية ورجال صابرين على القتال بكرة وعشبة »

ومع هذا لم تقدم الصوارم القواطع ولا الخيول
الجرد الأدهمية ؟ !

كانت واقعة دنقله فتحاً للسودان حقاً إذ سمع ملوكه
ورؤساؤه بقوة الجيش المصرى فأقبل الكبراء والعلماء
وشيوخ القبائل مسلمين طائعين ، فأغز اسمعيل السير إلى
أنحاء السودان حتى أقبل على سنار ففتحها فى غير عناء ،
وبلغ محمد على خبر هذا الفتح فسارع وبعث ابنه الثانى

ابراهيم ليتعاون ولداه معاً على اتمام فتح هذ القطر الفسيح
فوصل إلى سنار في ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٢١ م . واتفق
الأميران على أن يتجه اسماعيل شرقاً مع النيل الأزرق
وابراهيم جنوباً مع النيل الأبيض ، أما كردفان فقد بعث
محمد على زوج ابنته محمد الدفترداد فوصل الأبيض في
اكتوبر ١٨٢١ ، وناجز ملكها محمد الفضل ، فانتصر عليه
ودخل كردفان ثم أخذ يتأهب لفتح دارفور نفسها
ولكن حال دون ذلك نبأ موت اسماعيل .

وكان مصرع اسماعيل أمراً محزناً حقاً ولكنه
« خيانة مشروعة » من خيانات الحروب التي تحللها حرب
البقاء ؛ كان نمر ملك شندى رجلاً ذا سلطان عظيم فلم
يرضه أن يمتحن ملكه بهذا الفتح المفاجيء ، فتظاهر
بالتسليم وأولم لاسماعيل وجنده ولية فاخرة وقدم لهم
كثيراً من المريسة (١) حتى سكروا ، فلما ناموا أشعل
النار من حولهم فقتلهم جميعاً . وكان الدفتردار
يسعى إذ ذاك لفتح دارفور فبلغه الخبر فتحول عن

(١) نوع من الخمر في السودان

دارفور وقصد إلى شندى وأوقع بجيشها هزيمة منكرة ولكن
نمرأ أفلت من يده ، فأخذ العدد الكثير من رجاله وبعث
بهم إلى مصر ليكونوا في جند حميه وإلى مصر العتيد .
بهذه الحملات اليسيرة أصبح السودان كله أرضاً
مصرية ، ولم يخرج عن سلطان مصر إلا بلاد خط
الاستواء ، صار لمصر هذا الملك الواسع العظيم وكان
في إمكانها أن تنظمه وتحضره على غرار الشمال فيكون
للبلاد منه خير عظيم ، ولكن أنى لها ذلك والعقبات
تصدّها من كل طريق ، كانت إدارة هذه البلاد تحتاج
إلى الموظفين الأكفاء ولم يكن لدى والى منهم غير
النزر اليسير ، وإذا كان هذا والى قد افتقد هؤلاء
الموظفين لمصر نفسها فكيف له أن يسد النقص في
السودان ؟ إن مشكلة الموظفين كانت من أثقل
الأعباء على حكومة محمد على (١) حتى إنه اضطر إلى تعيين
الأجانب في الوظائف الرئيسية التي لا ينبغي أن يقوموا
فيها بجنسياتهم ودياناتهم حكماً على الفلاحين المسلمين
كما حدث في تعيين وال فرنسي على الجيزة .

(١) محاضرات الاستاذ شفيق غربال في الجامعة المصرية

لم يجد محمد على إلا نفرًا من الأتراك ملء وظائف
الحكومة في السودان فكان هؤلاء شرًا على السودان
من تجارة الرقيق وعسف ملوك الفونج ودارفور، كان
أولهم رجلا اسمه عنان بك وصلت المجاعة في عهده إلى
حد اضطر الناس إلى أكل الكلاب والحير، وكان من
رجال محمد على حاكم عظيم يقال له خورشيد باشا الذي
غزا الشلك وغيرها، وأجبرهم على الخضوع لسلطان مصر
وانحدر إلى مرتفعات دارفور فبلغها ثم أقام لمصر هيبة
في الحبشة؛ وكان ضمن ولاية محمد على في السودان المفسد
الظالم محمد الدفتردار زوج بنت محمد على الذي كان نكبة
نزلت هذا القطر الشقيق وفضيحة في وجه الحكم المصري
يتحدث الناس عن قسوته فيزعمون أنه كان يصطاد
العبيد كما يصطاد العصافير! آلافا من العبيد يرسلهم إلى
مصر، يسوقهم سوق الانعام لا يعنى بصحتهم ولا طعامهم
حتى قيل إن عشر آلاف من هؤلاء العبيد يصلون إلى
مصر خمسة آلاف فحسب، بعضهم يموت جوعاً أو عطشاً
وبعضهم يتصرف فيهم هو وزوجته كما يهوى
وتهوى



النقيب رستم باشا العباسي بحالوف
سنة ١٢٤٥ هـ



Portrait of General Sir John Hope
1851-52

ولم يكن في هذا الهوى بداهة ما يرضى الضمير
والأخلاق فلم يجد محمد علي بدأ من أن يقيم الرجل مخافة
أن تضطرب البلاد من قسوته والتواء خلقه. وقد كانت علاقة
السودانيين بالوالي علاقة دافع الضرائب بالجاني ! لم يفكر
أحد من هؤلاء الولاة في شيء من الخير لهذه البلاد، فلم يجد
أهل السودان مبرراً لهذا الخضوع الذي يكلفهم الضرائب
الباهظة والطاعة والرقيق دون أن يستفيدوا من العلم المصري
شيئاً؛ كانوا قد رحبوا بالفتح المصري واطمأنوا إليه ليرفع
عنهم أثقال الظلم وقسوة العتاة من حكام السودان، ولكن
ولاة محمد علي خيبروا رجاءهم في عدل مصر وإنصافها.

على أن والى مصر، والمصريين الذين يغارون على
وحدة القطرين قد اضطروا إلى الالتفات عن أمر
السودان وتدير الخير له، فظروا في مصر الخارجية أولاً
وجهت النشاط المصري إلى خارج البلاد كما أن تنظيم مصر
ومواردها كلف الولاة اختصار نشاطه ووقفه على الشمال
وحده؛ وثمة أمر آخر صرف همهته عن العناية
بأمر السودان ذلك أنه لم يوفق إلى تكوين جيش من
السودانيين، إذ أن معظم الجيش من السودانيين لا يحتملون

جر مصر فكان أكثرهم يموت أو لا يصلح للجنسية
النظامية ؛ أما الذهب وهو غرض مهم من أغراض الفتح
فقد يئس الوالى منه كل اليأس حتى لقد اشتدت
به الأزيمة ١٨٣٨ فوفد على السودان بنفسه لينظر هذا
الأمر وعاد منه صفر اليدين ؛ وإذا خاب الوالى فى
تكوين جيش من السود والحصول على الذهب فلم يبق
له فى السودان إلا الضرائب يسرف ولاته فى تحصيلها لتحقيق
مطامحه الملحة فكان ذلك خطراً على الحكم المصرى فى
السودان، هذا الحكم الذى لم يكن يوماً من الأيام إلا خيراً
للسودانيين .

فاذا كانت ١٨٥٧ زار سعيد باشا السودان ، وكان
رجلاً رقيق القلب قنوع النفس فلم يجد من الخير الاحتفاظ
به وفكر فى الجلاء عنه وتركه لسكانه وتحدث
فى هذا إلى بعض أصحابه وعلم أهل السودان بهذا فتقاطروا
عليه ورجوه ألا يفعل مخافة أن يعودوا إلى ظلم حكاهم
الأقدمين وهم على كل حال ينعمون فى ظلم المصريين !
فأقر سعيد باشا الحال على ما هى عليه ، وخفض الضرائب
ونظم البريد وكون من الأعيان مجلساً يعقد مرة كل سنة

للنظر في راحة وطمأنينة أهل البلاد ، وأراد أن يزيد
البلدين صلة فعهد إلى المهندس الفرنسي موجل بك فرسم
له مشروعاً لخط حديدي بين حلقا والخرطوم .

كان يرجى للبلدين من هذا الفتح الخير العميم ، ذلك
أنه وصل للصلة الطبيعية الواجبة بين هذين القطرين؛ كان
يرجى للسودان أن يفيد من حضارة مصر ونهضتها وكان
يرجى لمصر الفائدة من وراء العلم المصري في السودان ؛
ولكن مصر شغلت بالخطر الذي أقبل عليها من جانب
أوروبا التي وقفت لها ولنشاطها موقف العداء في غير
مبرر لهذا العداء اللهم إلا نصرة الرجل المريض أي تركيا
في ذلك الزمان (١) ، وزاد الأمر سوءاً بين البلدين حاجة
مصر نفسها إلى العمال الصالحين في كل نواحي الحياة مما قصر
نشاطها على نفسها فحسب ولا تنسى ونحن في معرض الذكرى
أن نتحدث عن يد الانجليز في تسوية الحكم المصري في
السودان مما ستعلم نبأه بعد حين ؛ ومهما يكن من أمر فقد
كان فتح مصر للسودان نشرّاً للحضارة المصرية النشيطة في

(١) الأستاذ حسين مؤنس في كتابه « الشرق الاسلامي في العصر
الحديث »

تلك الربوع ؛ نعم إن العصر الحديث لم يكن خيراً على
السودان من عصره القديم ، ولكنه لا يخلو من
الخير على كل حال ولو لم يكن فيه غير ربط البلدين
وتوحيدهما من جديد .



أقاليم خط الاستواء

حدثك في الفصل السابق حديثاً مقتضباً عن فتح السودان ، وذكرت لك أن وإلى مصر لم يكن يعنى باكتشاف جهات خط الاستواء من الناحية العلمية لافتقاره إلى العمال المصريين في هذا الباب ، ولو وجد هؤلاء العمال الذين يستطيعون القيام بأمور الكشف لما كلف خاطره وجنده هذا المجهود الذى لن يعود على مصر بالذهب والجنود السود ! ولكن ولاية مصر بمن أعقب محمداً علياً كانوا يرغبون رغبة صادقة في تشجيع كل من يعمل على إعلاء شأن مصر وأسرهم فيها . لذلك كانوا يمدون يد المساعدة للجمعيات الأجنبية التى تفد على مصر باحثه منقبة عن آثارها ، أو مغامرة في مجاهل إفريقيا من أجل العلم والمعرفة .

فحديث اكتشاف أقاليم خط الاستواء إذن حديث يحمل في طياته فخراً لمصر . ذلك أنها قامت باكتشاف تلك الجهات النائية وتمهيداً وإعدادها للحضارة ، وتعهدت

العلماء الذين قاموا بهذا العمل بأموالها ورعايتها وجنودها
وحكامها وكل ما تستطيع أن تبذله من المعونة حتى يبلغوا
الغاية المرجوة ، وكان أغلب هؤلاء العلماء والقادة غير
مصريين لأن هذا النوع من الرجال لم يكن قد وجد في
مصر بعد . أو قل لم يعن محمد علي بأعداد هؤلاء المكتشفين
بالرغم من أنه جدد في جميع نواحي الحياة المصرية من
فنية وعلمية ولولا هذا لظهر فينا من المكتشفين كما ظهر فينا
فلكى لمحمود باشا العالم المشهور ، وعلى مبارك باعث المعارف
في مصر ورفاعه رافع الذي أسس مدرسة الخرطوم وله
في الحياة الأدبية آثار . كان أكثر هؤلاء العلماء إنجليز
الجنسية غير أن عملهم محسوب على مصر ولها لأنها
استقدمتهم وكلفتهم بذلك ، ولم يخلص أكثرهم لمصر بل
اتجهوا بأخلاصهم لبلادهم . كان أكثرهم يخدم الجمعية
الجغرافية الانجليزية أو وزارة الخارجية البريطانية ،
فانصرفت الفائدة الى الانجليز دون المصريين .

وكاد الفخر ينصرف إليهم لولا أن قيض الله للحق
بعض أنصاره يقولونه ثواباً وإحساناً .

طبعي جداً ألا تغني مصر كثيراً بفتح الأقاليم

الاستوائية ذلك أنها كانت عاجزة كل العجز عن تنظيم
ما فتحته ورغبت فيه فلم يكن هناك داع لأن تفكر
في فتح جديد ، وكانت كل علاقتها بأقاليم خط الاستواء
أنها حاولت منع الرقيق منه فأصدرت منشورات بهذا
دون أن يكثر لها أحد ، ولم تمنع التجار من المتاجرة في
هذا النوع حتى ساهم نفر من حكام مصر أنفسهم في
هذه التجارة النافقة السوق .

كان قصارى سلطان مصر في تلك الجهات أن تقطع
بعض الأسر إقطاعيات وأشهر المقطعين أسرة العقاد
وأشهر أفرادها السيدان أحمد وموسى اللذان كانا يدفعان
للحكومة المصرية خراجاً قدره خمسة آلاف جنيه في
السنة على ألا يتجرا في الرقيق ، وكانت كل تجارتهم في
الرقيق !! فزاد نظام الإقطاع تجارة الرقيق زيادة فاجرة إن
صح التعبير . فقد هيمن على هذه البلاد نفر من الأتراك
تركت لهم الحرية كاملة في تجارة الرق والعبيد ، فإذا امتنع
عليهم الأهليون استعانوا بمصر وجنودها بحجة عصيان أهل
البلاد في دفع الضرائب أو ماشابه ذلك ، فساء الأمر أهل
هذه البلاد وعم الظلم فيها وضربت الفوضى أطناها .

على أن الأنجليز لم يغفلوا هذه الحال ، وكانوا
يرجون أن يمد لهم المكتشفون في أقاليم الاستواء عسى
أن يرفعوا عليها علمهم وينشروا سلطانهم يوماً ما ؛
توجهوا في نشاط لكشف هذه الاقاليم ، وأقاموا لهذا
جمعية غنية أسموها الجمعية الجغرافية الأفريقية ، وأخذوا
يبعثون البعث لهذا الغرض حتى استطاع اثنان من
مغامريهم الوصول إلى منابع النيل وأطلقا على بحيراته
اسم ملكتهم وزوجها تيمنا باسميهما وتأكيذا لسلطانهما ؛
وما دامت حكومة مصر قائمة تنفق المال ذات اليمين وذات
الشمال ، وما دام اسماعيل يسعى جهده ليجعل بلاده قطعة
من أوروبا ! فلا بأس من السعى لديه حتى ينفق على هذه
البعوث ويزكي رجالها وهو الطويل الباع العزيز الجانب .
تم هذا السعى وكانت خدعة موفقة وأرسل السير
صمويل بيكر (١) فانطلق حتى دخل منطقة الاستواء ووصل
غندكرو في ٢١ ابريل ١٨٧٠ فسمّاها الاسماعيليه
تيمناً باسم اسماعيل وجعلها مركزاً لحكومته ،
ثم واصل السير حتى وصل إلى بحيرة فكتوريا ،

(1) Jules Cocheri " Situation internationale de
L'Egypte et du Sudan ,"

وبهذا كان أول إنسان وفق إلى السير من منبع النيل إلى
مصبه ، وكان يحرسه جنود مصريون ؛ فأذا فرغ من مهمته
عاد إلى الخرطوم ثم إلى القاهرة وسأل أن يعفى من
العمل فأجيب إلى غايته وعاد إلى بلاده .

أصبح على مصر أمراً واجباً أن تعفى بتأمين هذه
البلاد وحكمها ومنع الرقيق فيها وتحضيرها ، فأين لها هذا
كله وهي عاجزة عن أن تجد العمال الأكفاء في مصر
نفسها ؟ وكان الانجليز يعرفون هذا فنصحوا الحكومة
المصرية بأن تكل أمر هذه الجهات إلى الكولونيل غوردون
وكان غوردون رجلاً فذاً ، كان علماً مفرداً بين
هؤلاء الساسة الانجليز الذين يعيش شرفهم في دخان
سيجارتهم ؛ كان فارساً شجاعاً ذا ضمير حي فكان في ضميره
حتفه وإن لم يعدم جزاء هذه التضحية الغالية التي سيأتيك
نبؤها في عرض طرف من سيرة هذا الرجل القمين
بأعجاب الأحرار وتقديرهم .

وجد غوردون نفسه في متاهة لا نهاية لها ولا آخر ؛
أقطار تمتد امتداد الخيال شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً
والرجل موكل إليه حكمها ومنع تجارة الرقيق فيها ؛

وكل قوته لهذا الغرض نفر من الجند لا يزيدون على
الآلاف عدداً من الأتراك والسودانيين والعرب ، ولم
تكن له صلة بتلك الأصقاع من قبل فلم يدم حكمه طويلا
غير أنه كان مصحوباً بنفر من أعظم الرجال الذين كان
لهم الأثر العظيم في تاريخ السودان ، وكانوا يصدرون
في أعمالهم عن ضمير حي ونفس شريفة ، هم أمين باشا
وحسين باشا والميجر شاي لونج ، وكان معه مركبان
بخاريتان أنزلهما في النيل فبقيا في مياهه العالية بين فويره
وغندكرو حتى قامت الثورة المهدية .

بقيت أقاليم بحر الغزال ودارفور فقيض الله لمصر
رجلا عظيماً أتم فتحها ونشر عليها علم مصر وسلطانها ؛
رجل سوداني من التجار أغراه المال بأقامة ملك له
في هذه المجاهل وأراد بعد إنشاء هذا الملك أن يمتنع على
الحكومة المصرية ، ولكنه عاد ووزن الأمر جيداً
فوجد أنه لن يستطيع مقاومتها طويلا فبايع خديوى
مصر وأرسل إليه يعلن طاعته وخضوعه فأقامه الخديوى
على تلك البلاد ومنحه الألقاب حتى أصبح اسمه الزبير
باشا ولبس اللباس الرسمي الموشى بالذهب ؛ كان رجلا
ممتازاً يستحق أن نقف وإياه لحظة .

تصور لنا حياة الزبير التفكير السياسى أو الحياة
السياسية التى كانت سائدة فى ذلك الزمان ، تصور لنا
كيف كان رجال السياسة ينهضون إلى مراتبهم
ومرا كزهم وكيف يعزلون ويجرى فيهم قضاء منافسيهم :
ثم تصور لك السياسة الانجليزية التى سنعود إليها بالشرح
فى فصل مقبل ، كيف أن هذه السياسة لم تكن ترضى
عن وجود حاكم صالح فى السودان حتى لا يستقر أمر
مصر فيه .

فتح الزبير أقاليم شكا وبحر الغزال ثم دفعه إخلاصه
إلى إرسال طلب إلى اسماعيل باشا أيوب الوالى المصرى
فى السودان يطلب إليه أن يستلم زمام هذه الأقاليم
الجديدة ويحكمها باسم خديوى مصر ، وأراد الخديوى
أن يكافئه فأقامه عليها ؛ فانطلق يحارب فى هذه البلاد
حتى ضم لمصر ملك دارفور وبحر الغزال وهذه الجهات
النائية ، واضطرب الانجليز لسلطان مصر الذى بدأ
يستقر فى هذه الجهات فسعوا إلى الوقعة بالزبير باشا ،
وأذاعوا للخديوى كثيراً من الافتراء عن هذا الوالى
السودانى الشريف ، وما كان أسهل الاتهام فى تلك

الأيام ، فأرسل إليه الخديوى يستدعيه إلى القاهرة
« للداوله معك فى تشكيل حكمدارية تكون مفوضة بك
وتحت إرادتك » فتخوف الزبير ولم يكن ساذجاً حتى
تجوز عليه خدعة كهذه وتردد فى الذهاب وقال « فلها
تلوت التلغراف شعرت فى نفسى بأنى إن ذهبت إلى مصر
فلا أعود إلى السودان وبذلك شعر رجالى أيضاً وأرادوا
منعى من الذهاب ولكن إخلاصى لحكومتي وشرف
نفسى قضيا على بالمحافظة على قولى فجئت إلى مصر » (١)
كان هذا الرجل كريماً شريفاً حقاً ، وعد فأنجز
وعده بالرغم من الخطر الذى يتهده فى القاهرة نتيجة هذه
المؤامرة الدنيئة التى صنعها له الانجليز عند الخديوى ،
وهو حين يتحدث يظهر منتهى الولاء للخديويه ، فأذا
وصل إلى مصر أمره الخديوى ألا يبرحها ثم طوح به
فى حرب القرم ١٨٧٧ فعاد سالماً ولم يمت لسوء حظ
الانجليز . هنا اضطرب آل الأمير على رجلهم وتوجس
ابنه سليمان خيفة عليه فثار فى أقاليم بحر الغزال فأخذها
عليه الانجليز حجة قائمة ، وذهبوا إلى أنه أوصى ابنه

(١) من مذكرات الزبير باشا

بالثورة وحاولوا محاكمته فلم يجد الرجل بداً من الذهاب إلى
 بيرنج (كرومر) ليسأله في هذا الأمر، ولما لم يجدوا سبيلاً
 إلى إثبات التهمة عليه تركوه ثم أرادوا إذلاله فسيروه في
 ركاب بيكر لحرب عثمان دقته (١) فرفض وعاد إلى مصر .
 ثم ذهب غوردون إلى السودان لكي يخليه وبعث
 يطلب الزبير وألح في هذا إلحاحاً شديداً ، غير أن لندن
 رفضت ذلك ، وضائق حكومة لندن بالرجل واهتمته
 بالتآمر مع المهدي وهاجموه وقتلوا داره ونفوه إلى
 جبل طارق فلبث فيها ثلاثين شهراً ثم أطلقوا سراحه
 فعاد إلى مصر في سبتمبر ١٨٨٧ فأذا استقر الأمر
 للانجليز سمحوا له بالعودة إلى السودان فذهب ولبث هناك
 سنين ثم عاد إلى مصر فعاش في حلوان إلى أن مات فيها .
 ذلك هو الزبير وتلك حياته ، وفيها الشرح الوافي
 لأساليب ذلك العهد ، وموقف الانجليز من المصريين
 في السودان وسير أموره ومتايسر الرجال فيه فهو
 يحدثنا بوضوح عن المسائل التي كانت حكومة اسماعيل

(١) زعيم من زعماء الدراويش وساعد قوى محمد احمد
 المهدي . اقرأ عنه في كتاب "The Egyptian Soudan" تأليف
 Alford and Sword

تعالج بها إدارة البلاد فقد عين الزبير حاكماً على أقاليم بحر
الغزال دون أن يزور مصر واطمأن الخديوى له ما دام
يستطيع أن يؤدى إليه المال الذى يفرضه على هذه الجهات
ورضى عليه إسماعيل أيوب باشا حاكم السودان العام لكفاءته
ونشاطه ، وكان فى استطاعة الزبير أن يسير فى طريق
الرقى والوظائف إلى أعلا الدرجات لولا أن الانجليز
لم يرضوا عن هذا الحاكم القوى وهم يريدون حاكماً ضعيفاً
تضطرب معه أمور البلاد ويسوء بوساطته اسم مصر فى
السودان ؛ لذلك غضبوا عليه كما سيغضبون على أمين باشا
وعلى غوردون نفسه وقد ساقوه إلى حتفه على الرغم منه
وقدروا مصيره بأيديهم ، فكان مصير الزبير ومصير أمين
باشا وغوردون واحداً ضحايا فى ركب
الاستعمار الانجليزى .

أوروبا واستعمار إفريقية

لهذا الفصل حديث محزن يشق علينا أن نقدمه لك لما فيه من مرارة وأسى ، هو حديث أوروبا العظيمة النشطة التي تحيا حياة أقل ما يقال فيها إنها حياة بقاء ؛ وحديث إفريقية المريضة المتثاقلة التي تعيش في دياجير الجهل في حياة أقل ما يقال فيها إنها مقدمة فناء ؛ موضوع فيه العبرة لمن أراد الاعتبار ، ولكن الأفريقيين لا تغريهم العظة فلا يزال النائم نائماً والمفلس مفلساً ، والخامل خاملاً ولا تزال أوروبا في جهادها وكفاحها نشيطة عظيمة لا تكاد تلمح البارقة أو الفريسة حتى تنقض عليها في شره ونهم وتفوز منها بما تشتهي وتريد .

كانت اليونان أمة نشيطة منذ عرفها التاريخ قبل مولد المسيح بقرون ، هي أمة قادرة ، استعدت للحياة استعداداً طيباً وحفلت بأمرها احتفالاً عظيماً ، هاجر اليونان إلى آفاق الأرض وضربوا في مناكبها وازدحمت الدنيا

القديمة برجالهم وأبطالهم ؛ في آسيا الصغرى وعلى سواحل
البحر الأسود ، في مصر وصقلية وفي إيطاليا حيث استوطنوا
تلك الجهات وأنشأوا المستعمرات فيها ، وخلقوا الأمم
التي طار صيتها في الغنى والقوة وبزت في مواردها وشخصيتها
بلاد اليونان نفسها .

هذا الاستعمار القديم اختفت شدته حيناً من الزمان
يقدرها المؤرخون بخمسة وعشرين قرناً ؛ ثم تمخضت
الدنيا عن لون جديد من الاستعمار ، هو أشد هولاً من
استعمار اليونان ، فإن أوروبا في القرن التاسع
عشر أصابها سعار الاستعمار حين ضاقت بناسها فانطلقوا
إلى الأرض يتقسمونها كأنها ملك حلال لهم أو كأنها
ضياع بلا مالك *Res Nullius* والسابق السابق من دول
أوروبا ، ومن أدرك بقعة في العالم الشرقى رفع عليها علمه
وأصبحت أرضه التي لا ينازعه فيها منازع ، أهلها عبيده
وزرعها طعامه وحيوانها صيده ؛ كان هذا اصطلاحاً بين
أهل ذلك الزمان فرضته أوروبا على العالم تلك التي نادى
يومها بالغاء الرق ، فكأنها ألغت رق الأفراد وأباححت
رق الجماعات ! كان العرف قد جرى على أن يخطف



تمثال غوردون باشا

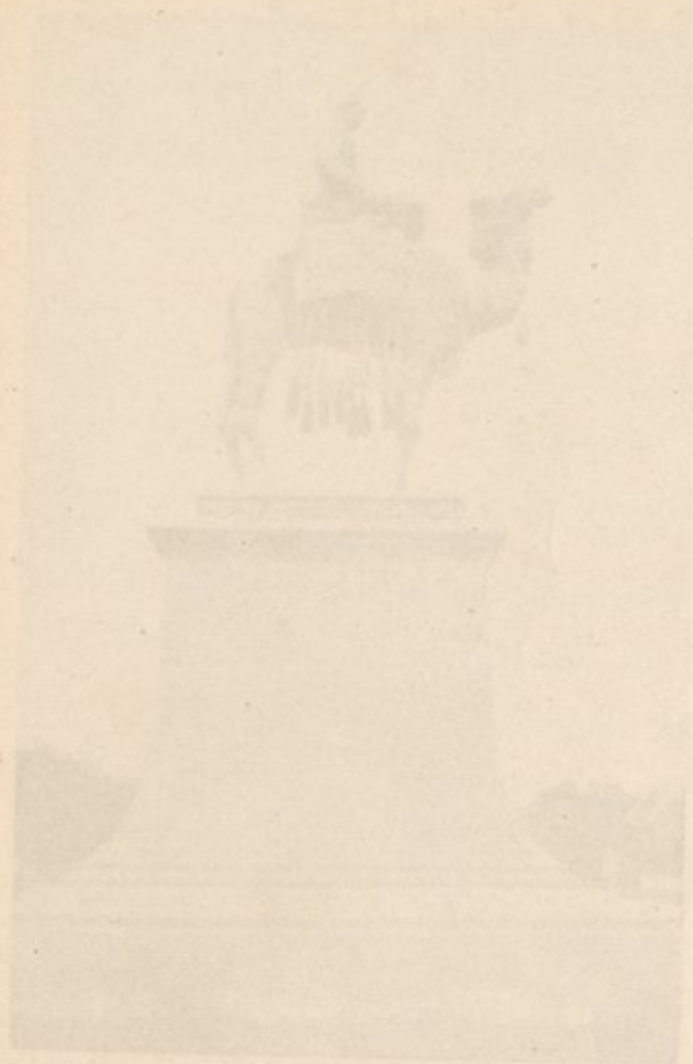


PLATE 10

الانسان فرداً فيسترقه على ما يهوى أما عرف القرن التاسع عشر فشيء آخر ، يخطف الشعب كله فاذا هو رقيق وإذا أرضه ضياع للدولة الفاتحة وأفرادها عبيد وأنفهم راغم في التراب ؛ جهزت أوروبا أساطيلها وسلحتها بالجيش وأطلقتها تضرب في بقاع الأرض .

وأقبل الفرنسيون فاكتمسحوا غرب إفريقيا كتساحاً ، وأقبل الانجليز فاحتلوا الجنوب وتوغلوا الى الشمال فكان لهم نصف قارة بأسرها ، واستيقظ المصريون فضموا بجانبهم نصفهم الثاني فكان لهم السودان وما يتبع السودان إلى منابع النيل ، وأفاق الايطاليون في أعقاب الدول العظمى فتراموا على الحطام وفضلات المائدة فأصابوا طرابلس ثم أخذوا من مصر هرر ومصوع وناقلة من الانجليز هي الصومال ، ولم يثبت البرتغاليون إلا في إقليمين صغيرين أحدهما في الشرق والآخر في الغرب هما أنجولا وموزمبيق ، وأحس النسر البروسي بالغنيمة المشاعة فأقبل يرفرف في طلب الرزق الحلال ؛ فأزعج أصحاب الغنيمة فنزلوا له عن صقع في الغرب وصقع في الشرق فخط فيهما لحظة ومضى

يضج من ظلم الفرنسيين والإنجليز وهم على رعب منه
يحاولون إرضاءه وإسكاته وانتهى أمر الدولتين الديمقراطيةين
أخيراً إلى التضافر على هذا النسر الحديدي في اتفاق سموه
الاتفاق الودي ١٩٠٤ قررا فيه أن يكونا يداً واحدة عليه
إن حاول لهما شراً ، وبقياً على عهدهما حتى قامت الحرب
العظمى في سبيل الاستعمار وإذا النسر حطام يكاد يلفظ
النفس في ١٩١٨ .

هذه العجالة الخاطفة تصور لك الحركة الاستعمارية
في القرن التاسع عشر والتي يطلق عليها المؤرخون إسم
تقسيم إفريقيا فان هذه القارة بقيت مغلقة دون المستعمرين
زماناً طويلاً ؛ قسمت أمريكا في القرنين الخامس عشر
والسادس عشر وفرغ الأوروبيون من أمرها في القرن
الثامن عشر وكفوا يدهم عنها مرة واحدة بعد قرار مونرو
١٨٢٣ ، وكانت آسيا قد فرغ الناس من أمرها ؛ قضى على
الهند نهائياً وقضى على جزائر الملايو ، وتقرر مصير الشرق
الاسلامي بولاية الدولة العثمانية الضعيفة عليه ، وتمزقت
الصين واستقلت اليابان ، فلم يبق غير إقليمين اثنين يتنازع
عليهما الناس هما الولايات الألمانية في أوروبا وقارة

إفريقية . فأما الولايات الألمانية فقد انضمت في كل واحد
تحت العلم الألماني الذي أظهر بفضل بسمارك دولة ألمانيا
الحديثة ١٨٧٠ . وأما إفريقية فقد انتهى أمرها على الأسلوب
الذي شرحته لك وأزيدك الآن فيه إيضاحاً .

كانت إفريقية في تلك الأيام في سبات عميق يسودها
دينان ، الإسلام والوثنية ، ويتقسمها لونان البيض والسود ،
يحيا أهلها حياة لا تقوم على أساس ولا معرفة ، حياة أيامها
متشابهة تنقضى على وتيرة واحدة في صيد أو في صلاة
وتنتهي الى موت لا أثر له ولا خلود فيه ، كان
الناس أقل من جهال ، يعيش النصف أو أكثر من النصف
على الفطرة عرايا كما خلقهم الله ، السهم سلاحهم والطوطم
إلهمهم ، جعلوا عيشهم حرباً بين قبيلة وأخرى ، يخذل
بعضهم بعضاً ، أعداء بشريعة الحياة ، جهالا كسالى لا يشعرون
بقيمة العلم والعمل ولم يعملون والله قد مهد لهم الرزق
وبسط لهم الخير ؟ يضربون في جنات تجرى من تحتها
الأنهار لا تشاركهم فيها غير الحميات والحيوانات ، فاذا
كثر ولدتهم لا يخافون الموت فالجنس وفير والقوم
حشد نفير !

وأما الفريق الثاني ففي مصر وشمال إفريقيا ؛ كانوا يعيشون تحت وصاية الأتراك (١) ، وكان الأتراك في ذلك الزمان ضعفاء جهالا لا يفرقون عن وثنبيي أفريقيا إلا في جهلهم المترف وحيوانيتهم المنظمة ، وكان الأتراك أوصياء يقودون مصر وشمال أفريقيا والسودان في طريق لا غاية لها ؛ وضعهم السلطان في حجرة وأحكم غلق بابها ومضى بهم الى حيث يشتهي ، فقد كان السلطان في هذه الأيام رجلا مسكيناً ، أثقل عليه الروس من الشمال والأوروبيون من كل جانب وفسد عليه أمره في دولته وفي أملاكه وسعى لينجو بنفسه ما وجد الى النجاة سيلاً ، كانت تقاليد الأمور للخدم واليونان وللحظيات حيناً ولكل من هب ودب ممن له مع السلطان صلة أو سر ، كان هذا حال الخليفة بقواته وأمرائه وعلماؤه وأملاكه جميعاً ، يرفع علم الاسلام بيد ترتعش من الضعف وكاد يصبح الاسلام أيام الدولة العثمانية أثراً وذكرى .

هذه كانت إفريقيا يوم أقبلت عليها أوروبا غنيمة باردة فلم تجد عناء في القسمة ولا مشقة في الاستعمار ، لم

(١) الشرق الاسلامي في العصر الحديث للأستاذ حسين مؤنس

يكن يلزم للأمر جيوش ولا قواد أبطال ، وإنما كان يكفي
أن يحدد الأقليم على الخريطة ويذهب القوم الى الحدود
بأنفسهم ثم يثبتون ذلك في مؤتمر دولي ! ولم يكن
المستعمرون في بعض الأحيان إلا شزيمة من الجند معهم
رصاصهم وبعض المدافع وهذا يكفي لهزيمة قطر بأكمله ،
ولم يجد المستعمرون مناوءة صادقة إلا في طرابلس والحبشة
والسودان

فأما أسباب هذا العجز الذي أبداه الشرق أمام الغزاة
الأوروبيين فظاهرة لا تحتاج الى توضيح إذ لم يكن بد من
أن يهزم الفارس الشرقي على ما عرف عنه من الشجاعة
والأقدام أمام الفارس الأوروبي ببناذقه ومدافعه ورصاصة
على الرغم مما عرف عنه من الجبن والتظاهر الفارغ ، ولم
يكن بد من أن تنهزم الأمة الشرقية الجاهلة الجامدة أمام
الأمة الفتية التي تعلم الكثير عن نفسها وعن غيرها ، ولم
يكن بد من أن ينتصر الملك الديمقراطي الذي يحبه ويطيعه
شعبه على الملك الشرقي المستبد الجاهل الذي يحسب
سلطانه على رعاياه فرضاً يؤدونه كما تؤدى الصلوات ، لم
يكن بد من أن ينتصر القلب الحساس والخيال العميق على

الصوفية المغلقة والذهن القنوع والخيال المتواضع الذي
يعيش اليوم كأنه يموت غداً .

بهذا تهدم الشرق الاسلامي وانهار بنيانه الشاخص لأن
الجهل والقناعة والكسل دوافع لا تؤسس الدول القوية
وإنما تقيمها العاطفة المشبوبة والاحساس الدقيق والفكر
المتوقد واليقظة الدائمة والعلم الذي يملأ القلوب نوراً
ويجعل الناس درجات ، وإنما يؤسسها العدل والمساواة
بين الأفراد والحب المتبادل بين الحاكم والمحكوم ، وتؤسسها
أول ما تؤسسها الوطنية الصحيحة والشعور الصادق بأن
تراب الوطن أعز من قلب المواطن ...



المستكشفون

واستعمار السودان

أقبل الناس على هذا العالم الجديد الذي فتحه الله لهم في تردد كثير فقد كانت آسيا تهاً واسعاً يضل فيه الانسان ولا يجرؤ على الوغول فيه إلا المخاطرون ، كانت غاصة بالسكان المحافظين الذين لا يتقبلون الغريب ولا يحبونه وقد يصلون في تحفظهم إلى حد إعدام هذا الزائر في كثير من الأحيان ، وكانت إفريقيا مثقلة بحرارتها وأمطارها مزدحمة بغاباتها محوطة بصحاريها ، مملوءة بأقزامها وزنوجها لا تكاد تشعر بالحياة ؛ وكانت أمريكا نهياً مقسماً بين الأوروبيين يقتتل الإنجليز والفرنسيون في شمالها ويقتتل اللاتين في جنوبها ولكنها كانت أحسن حالا من القارتين الآخرين فقد كان أهلها متيقظين لبعض الشيء .

أقبل الأوروبيون على هذه المجاهل المقفلة مترددين يخافون أن يزجوا بأنفسهم في هذه المعالم السحيقة والفيافي

التي لا حدود لها : فلم يكن بد من أن يقوم نفر منهم
يجازفون في هذه الأصقاع يستكشفونها وينقلون إلى
الناس أخبارها ؛ وبدأت حركة الاستكشاف على هذا
الأسلوب .

كان أول دعاة الاستكشاف المبشرون فقد حسبوا المجال
متسعاً للتبشير بالمسيحية ونشرها في بلاد الشرق الواسعة ،
ويرجع قيام الرهبان بأمثال هذا العمل إلى الحروب
الصلبية التي عرفت الأوروبيين على الشرق وسحره وجذبتهم
إلى متاهاته وأصقاعه ، وقام من غير الرهبان نفر من
المجازفين المتطلعين إلى كل جديد ، قوم جبلوا على حب
الاستطلاع ورغبوا في المجازفة رغبة شديدة فكانت
سياحتهم في أول الأمر غراماً بالأخطار وميلاً إلى الضرب
في مناكب الأرض الواسعة كما ركوبولو في آسيا
ولفنجستون في أفريقيا .

ويهمنا في هذا الحديث أمر أفريقية وحدها بل
النيل فقط إذ أن حركة الاستكشاف في هذه النواحي
اتخذت لونا خاصاً هو لون استعماري خالص فأن
المستكشفين لم يقصدوا بكشفهم ورحلاتهم وجه العلم

ولا خدمة الفن ولا رجاء الإنسانية ورفعتها ولكنهم كانوا دعاة الاستعمار وصنائع المستعمرين : اتخذوا العلم ستاراً وذهبوا يدلون المستعمرين على البلاد التي يمكن استعمارها فأوفدتهم الدول المختلفة يعملون لحسابها فكان لأنجلترا وفرنسا وبلجيكا وغيرها جماعة وقفت حياتها على خدمة الاستعمار تنفق عليها هذه الحكومات فكان لفرنسا برازافيل ولألمانيا كرون ولأنجلترا بيكر وجرانت وسيك وستانلي .

على أن إنجلترا فاقت هذه الأمم جميعاً دون أن تتكبد لهذه الرحلات ثمناً ، إذ احتالت على حكومة مصر احتيالا عجيباً فكانت تقنعها بأن لا بد خدمة للعلم والفن وخدمة لاسم مصر وحفظاً لكرامتها بين الدول أن تقوم مصر الكريمة السخية ببعث هذه البعثات إلى منابع النيل في سبيل الكشف على أن تتحمل بكرمها نفقات هؤلاء المكتشفين رجاء الحصول على خير من وراء كشفهم يعود على مصر فيعلى اسمها بين الأمم : وكان هؤلاء المستكشفون يعملون لحساب إنجلترا في الواقع إذ كانت مراسلاتهم الرأسية مع وزارة الخارجية البريطانية .

لم يكن المستكشفون الذين كشفوا النيل إذن قوماً
من أهل العلم ولا دعاة للخير وإنما كانوا دعاة الاستعمار
كانوا من أهل الباطن الذين يخدمون بلادهم سراً
ويستترون خلف العلم ظاهراً ! بل إن بعضهم لم يكن يجرى
وراء العلم تماماً فأن استنلى لم يجذبه العلم وحده لا كتشاف
منابع النيل ؛ بل جذبه أكثر من العلم المال الوفير
والشهرة التي كان يرجوها ويحلم بها ، ولا نزاع كذلك
في أن الكثيرين منهم لم يكن لهم من شرف العلم وجلاله
ما يحملنا على احترامه وذكر فضله فقد كانوا مأجورين
يأخذون من الحكومة المصرية ما يستحقون وفوق
ما يستحقون ثم يأخذون من الحكومات الانجليزية
والفرنسية ثمناً لخيانة مصر ويعملون لهذه الدول وحدها
ولا جدال كذلك في أن ستانلي كان يعمل لحساب الانجليز
وأن بيكر كان انجليزياً صرفاً .

هي غفلة من الحكومة المصرية في هذه الأيام السوداء ،
كان اسماعيل لا يهتم بمن يوليه انجليزياً كان أو مصرياً ،
وكان يجهل كل الجهل أن عيون الانجليز متيقظة تنظر
بشغف إلى الغاية البعيدة المرقوبة وكان وزراء اسماعيل

لا يحبون مصر في أغلبهم ولا يعملون خيرا أو قلا
لا يعنون بخير لحقها أو شر نزل بها ، وكانت
مصر منهوكة هدها الأفلاس وحد نشاطها
الجهل وكلفها حب الظهور مالا تطيق فأصبحت
فريسة في أيدي الفرنسيين والإنجليز ، مالتها تحت رقابتهم
وأعمالها تصرف حسبما يشتهون ، فلم يكن من الغريب أن
يغرم قوم بحب الاستكشاف والرغبة في خدمة مصر
عن هذه الطريق ، ولم يكن من الغريب أن تقنع إنجلترا
خديوى مصر بفوائد هذا الاستكشاف حتى يقوم عمالها
من صنائع الاستعمار بتمهيد الطريق للاستعمار الإنجليزي
في الجنوب ، ولم يكن أحب إلى حكام مصر من هؤلاء
المستكشفين فأغدقوا عليهم النعم وأباحوا لهم الأموال
والألقاب ، واستغل هؤلاء الفرصة الطيبة فخدموا بلادهم
أجل الخدمات ، وانطلقوا يكشفون السودان ويرسلون
نتائج كشفهم إلى وزارة الخارجية الإنجليزية ، وبهذا
قويت أقدام الإنجليز في السودان . بعد مصر ،
واستطاعوا أن يخرجوا المصريين منه ، وقد
رغبوا يوماً ما أن يكون أمر الأخلاء دفعة واحدة .

ولكنهم تنبهوا إلى أن بين البلدين من الروابط ما هو
أبعد من هذا الحكم المضطرب الذي هيأته انجلترا بدسها
لتفرضه مصر على الجنوب في ذلك الزمان وإنما هما متصلان
روحاً وجسداً فأخذوا يحاولون هذا الفصل شيئاً فشيئاً
حتى تم لهم ذلك كما سنرى .



الانجليز والسودان

مهما يكن بيننا وبين الانجليز ، أو مهما كان بيننا وبين
الانجليز فان هذا الشعب مثل أعلى لشعوب الأرض طراً
هو الشعب الذى أحبت فيه وطنيته وإخلاصه وأكبرت
فيه سياسته ودهاءه ، هو أستاذنا من غير شك فى خلقه
وطباعه ، وكل ما أرجوه لنا أن نكون له تلاميذ موفقين ،
نعم تأخذ بعضنا العزة والكرامة ويأبون أن يسيروا على
خطى قوم سلبوا استقلالنا ، وعدوا على كيانتنا ، وثاروا
بوحدتنا فزقوها وجعلوا هناك مصر وهناك السودان ، هنا
علم وهناك علم ، ولكن حنانيك فان هذه الأفعال الشنيعة
لهى آية كفاءتهم وحجة إخلاصهم ووطنيتهم ، لم يستضعفوك
بل وجدوك ضعيفاً ، لم يعدوا على استقلالك بل وجدوا
حكامك لاغيرة فيهم ولا إخلاص فى قلوبهم فاستلموا
منهم الغنيمة باردة ، نعم لم يحترموك لأن القائمين بالأمر
فيك لم يحترموك ، ولكنك حين بانث شخصيتك واجتمعت
حيويتك بدءوا يردون لك احترامك ويسعفونك بتقديرهم ،

ويطلبون ودك ، ويمدون لك يد التقدير والاعتبار .
إنهم جميعاً أمام بلادهم واحد ، كل في واحد ،
يتحدون في الفكر والغرض والغاية حتى لترى الأمة
الانجليزية تصدر عن وحى واحد وفكر واحد وهى فى
حقيقة الأمر أفراد جمعهم مزاج مستقر لا يتبدل ولا يتغير ،
ترى الأمة ممثلة فى برلمانها وصحافتها ، وترى برلمانها ممثلاً فى
وزرائها وترى وزارتهما فى الشؤون الخارجية ممثلة فى وزير
الخارجية ، وهذا الأخير له عماله فى الآستانة والقاهرة
والخرطوم . . . هذه الهيآت العريضة الكثيرة العدد لم
تخطئ مرة ، ولم يفارقها التوفيق أو ينزل بها الخلاف إلا
لما ، كان جلادستون فى لندن ، وجرانفيل فى الآستانة
وإيفلن بارنج (كرومر) فى القاهرة ، كان هؤلاء الثلاثة
يتصرفون كأنهم رجل واحد . . وربما شرع بيرنج فى
أمر فلا يلبث جلادستون أن يبعث إليه أمراً لينفذه فإذا
هو بعينه هذا الذى مضى فيه بيرنج وربما استنكر الوزير
والسفير الأمر فى ساعة واحدة ! فكأنما هذه البلاد تجمعهم
فتوحد فيهم الفكر والروح والاتجاه كالساعة تتعاون
الأجزاء كلها لتنظم حركة العقارب البادية للعيان .

حبذا هذه الأوطان وحبذا هذه الشعوب ، إن الزمان
ليمد لهم في العمر والبقاء والخلود ، إنهم ليموتون جوعاً في
سبيل شرف الوطن وسمعته ، وإن أحدهم لتطلق يده في
أموال لا حصر لها فيأبى السرقة أو تطلق يده في إدارة
أمة فيأبى الرشوة ويرفع يده عنها كارهاً حتى لا يلحق شعبه
من سقطته إن سقط عار ، فقد كان في استطاعة غوردون
أن يملأ جيبه ذهباً ثم ينجو من فضيحة الرشوة التي تحل
بها سادتنا الأتراك حكام السودان واحداً بعد واحد ،
كان في استطاعته أن يفعل هذا ليقى نفسه شر الحاجة
والعوز ، ولكنه أبى وذهب إلى بلاده فقيراً ونزل به
الضيق مرة فاضطر إلى بيع نيشان من نياشينه الذهبية ليرد
عن نفسه غائلة الجوع ! وكان في وسعه أن يكون غنياً
ولكنه رفض لأن الوطن لا يريد . . .

عرفت من الفصول السابقة الحركة المعروفة باسم
تقسيم إفريقيا ، وعرفت ما أصاب مصر والسودان منها
جملة ، ولا بأس من أن نعرض لك ما أوجزناه في شيء
من التفصيل ؛ كان الانجليز يدبرون ويقدرّون ليكون
لهم شرق إفريقية كله من الشمال إلى الجنوب ؛ وقد

أيقظهم إلى هذا أمران فاما الأول فرجل اسمه سسل
رودس، هبط جنوى إفريقية فقيراً يسعى إلى الكسب لكنه
كان قادراً موفقاً فأنشأ للأنجليز شمال مستعمرة الكاب
مستعمرة عريضة عرفت باسمه يقال لها روديسيا ، واتصل
بالحكومة الانجليزية ورسم لها الخطة المثلى كي تستولى على
شرق إفريقية جميعاً ، وكان حوض النيل كله تابعاً لتركيا فكان
هناك أكبر الأمل فى سقوطه بين يدي الانجليز عاجلاً
أو آجلاً ؛ وأما الطرف الجنوبي فقامت فيه أمة البوير
الضعيفة ، وفيما خلا ذلك كان الشرق إقليمياً خالياً يستطيع
الانجليز الاستيلاء عليه . رسمت هذه الخطة فى وزارة
الخارجية البريطانية ، وراح رجالها ينفذونها بدقة ،
فاستولوا على مصر ١٨٨٢ ونصف السودان ١٨٩٩
ثم السودان كله ١٩٢٤ وجنوب إفريقية ١٩٠٤ بعد
حرب البوير .

وأما الأمر الثانى الذى أيقظهم لاحتلال شرق
إفريقية كله فهو انحلال تركيا وتوقع تقسيمها من وقت
لآخر ؛ وسيلهم إلى هذا خطة أحكم تديرها وتنفيذها
فكانت آية من آيات السياسة الدولية ومثلاً من الحكمة

التي لا تخطئ ولا تنحرف ، كانوا يعلمون أن تركيا
ضعيفة وأن مصر أضعف ؛ وكانوا يعرفون أن بقاء تركيا
ضعيفة أو قوية يجعل مصر والسودان وساحل البحر
الأحمر حتى نهر جوبا في أمان من طمع الطامعين ، لأن
تركيا كانت جزءاً من أوروبا ضمنّت المعاهدات سلامتها
منذ معاهدة القرم ١٨٧٧ في استطاعة الانجليز إذن أن
يطمئنوا على مصر والسودان فالقانون الدولي يمنع أي
دولة من التقدم إلى وادي النيل وكان بقاء تركيا
وولاياتها ضعيفة يفيد لها من ناحية أخرى إذ أنها تستطيع
أن تنفذ إلى هذا الهيكل المتداعي متوددة إليه حتى تتسلم
زمام أمره وتشرف على شؤونه في جميع نواحيها ثم
تضربه الضربة القاضية وتحقق آمالها ، كانت تعلم أن
مصر في حاجة إلى موظفين ومهندسين وأطباء وولاة
فتقدمت بهؤلاء كي يكونوا عيناً لها وساعداً عند
الحاجة ، وكانت تعرف أن وزراء مصر ليسوا مصريين ،
فيهم التركي والشركسي والبروسي والمتجنس بالجنسية
الفرنسية ، فلم تجد مشقة في الاتصال بهؤلاء وكسب
ودهم حتى يسلبوا لها زمام الأمور ويصدروا عن مشيئتها

حين تريد : وكانت تعلم أن مصر يحكمها أمير أوتقراطي
يخشى وزراؤه بأسه فتعهدت لهؤلاء الوزراء بالسلامة
من شر هذا السيد القلب : ثم رأت إلى اضطراب
الأدارة المصرية في مصر نفسها اضطراب الحكم في
السودان حتى أصبحت مصر شقية بحكمه وأصبح هو شقياً
بحكمها فتقدمت تعاونه بالحكام فكانوا على ما ينطوون
عليه من الخيانة لمصر خيراً على السودان من حكمه
الأتراك الذين هبطوا به إلى الدرك الأدنى : ثم كانوا
يترفون أن سلاطين آل عثمان ووزراءهم يحبون المال
جاً فتقدموا إليهم بالمال في كرم وسخاء ، كان الانجليز
يعلمون كل هذا ، ويعرفون كيف يستغلون هذا الضعف
ويصلون إلى ما يحبون ويفيدون من هذا الاضطراب
جميعه ، ولم تكن هذه المعرفة مقصورة على الوزراء
فحسب بل كانت الأمة الانجليزية في مجموعها تعرف
هذا ... جرأت التيمس فقالت «إن مصر لا تستطيع أن
تحكم الدلتا بدون مساعدتنا فكيف تطمع في حكم السودان» .
ولم يفت الانجليز سبيل آخر من سبل الربح في هذا
الحال المضطرب ، فقد كانت حكومة مصر فقيرة وإن

تظاهرت بالغنى ولم تقتر على أحد من المكتشفين أو المدعين العلم بمال أو حماية ما دام هذا يجلب الصيت والشهرة لاسماعيل فى المجمع العلمية وعلى ألسنة الوزراء الانجليز والفرنسيين المرائين الماكسين فأوحوا إلى اسماعيل بأن من واجب حكومته أن تقوم بحركات للاستكشاف والسعى لمعرفة منابع النيل وإيصال حدود مصر إليها ؛ فاطمأن الرجل إلى حديثهم فشمّل من المكتشفين نفراً ستعلم من أمرهم شيئاً كثيراً حين أنبئك عنهم ، وكان هؤلاء المكتشفون يقدمون تقاريرهم إلى الحكومة الانجليزية وهياتها العلمية دون الخديوى الغنى الكريم ، وأدرك الانجليز مجداً عظيماً هم وسأحوهم ومكتشفوهم على حساب المصريين ، فإذا اكتشفت بقعة من البقاع أو هموا الحكومة المصرية بأنهم يقدمون للمصريين خيراً ويطلبون من الخديوى أن يسبق فيرفع عليه على الأقاليم المكتشفة حتى لا يطمع فيها طامع من الفرنسيين أو الايطاليين أو الألمان .

على هذه الوتيرة جرى الانجليز ، وكانوا قد أقاموا فى الآستانة والقاهرة رجلين عظيمين يستطيعان العمل

معاً بدقة ومهارة دون أن يختلفا أو يتدابرا فأقاموا
جرانفيل في الاستانة ونظيراً له في القاهرة ، الأول لكي
يحفظ ود الأتراك ، والثاني ليحفظ ود أصحاب مصر ثم
زاد عليهما ثالث في الخرطوم

على هذا النحو المحكم الدقيق سارت الحكومة
الانجليزية في السبيل التي اخطتها ، وعاونتها الظروف
فزاد سلطانها على مصر لحاجة هذه إلى المال واستدانتها
من الأجانب واضطراب أمرها وحاجتها إلى من يتولى
أمرها وينظم مالياتها حتى لا تتور بولاتها . كانوا
يحرصون دائماً على أن تبدو مصر دائماً بمظهر العاجز
المضطرب الذي لا يحسن ولاية نفسه أو ممتلكاته ؛ كانوا
يحرصون أشد الحرص على أن يكون في حكومة مصر
كل ضعيف عاجز وما من حاكم ماهر أو أدارى حازم
قدر له أن يصل إلى الوظائف الرئيسية يوماً إلا عملوا
على إقالاته وسعوا بالوقينة بينه وبين السلطان والخديوى
حتى يقصى عن العمل ويخلو الجو لهم بعد أن ينحى
كل ناصح شفيق أو حاكم مجرب وقد رأيت ما صنعوه
بالزبير باشا ، ورأيت أنه هالهم أن يقوم على أملاك

مصر في أعالي السودان رجل قوى قادر كهذا الرجل
الشريف المخلص فوشوا به حتى عزل عن أملاكه ونكّلوا
بأبنه واضطهدوه في كل مكان فنقوه إلى جبل طارق
وطوّحوا به في حرب القرم لكي تعدم مصر خيرته وبره ،
ولكي يقوم مقامه في هذه البلاد من العاجزين والمرتشين
والطغام ما يفسد أمر مصر في حكم السودان ويهيء
للإنجليز فرصة يدعون فيها أن مصر مضطربة لا تستطيع
أن تلي أمرها في شمالها أو جنوبها ، وأنهم هم وحدهم
القادرون على سياسة أمور الناس بالقسط والعدل .

وستعرف بعد قليل ما صنعوه بحكم آخر أظهر مقدرة
في الإدارة وتنظيم شؤون البلاد حتى استقامت أمور
مصر هناك وأصبحت خططهم بحكمة هذا الرجل مهددة
بالخينة ، وسترى أن هذا الرجل النبل الكريم المخلص
كان بوسعه أن يخذل الثورة المهدية بنفسه وكاد ينجح في
أقناع ولاية الأمور في مصر بالموافقة على رأيه وإخماد
الثورة وهي في فجرها ، ولكن الإنجليز لم يطبقوا عليه
صبراً فأثاروها حرباً على الرجل المسكين فعزل عن السودان
وأقاموا بدلاً منه ضعيفاً مريضاً عاجزاً يقال له رءوف

باشا سارت الثورة بأدارته الفاسدة سيراً حثيثاً . إنه من
المبالغة أن نزعّم أن الانجليز دبّروا الثورة المهدية وشجّعوا
لم يفعل الانجليز هذا ، ولكنها كانت نجاحاً لخطتهم فوق
ما دبّروا وقدرّوا ، فرحبوا بها وهولوا من أمرها وزعموا
أنها خطر وأباحوا لأنفسهم نكتة رائعة سموها إخلاء
السودان وفتحته من جديد !!

لهذا الغرض لم يرضهم أمين باشا ولا عبد القادر باشا (١)
ولا أحد من الذين يشتم منهم رائحة الأخلاص والأمانة
والنزاهة ، فكرهوا أمين باشا كراهية ستعجب لها حين
تقرأ شيئاً عن موضوع إخلاء السودان ، وقد كانت جريمة
هذا الرجل أنه أقر سلطان مصر في خط الاستواء وأذاع
فيه الأمن والنظام حتى رحبت القبائل الضاربة هناك
بحكم مصر ورجاها ؛ وكانت هذه سياسة لا يغفرها
الانجليز فسعوا به حتى استقدم الى مصر في حال يرثى لها .
ولعل محاربتهم للآء كفاء تنهض حجة على الخطة التي
شرحناها فقد كانوا يسعون للتدخل في أمور مصر والسودان
بشتى الوسائل ، فاذا كان الرقيق قائماً في السودان تحت بصر

(١) كان المهدي يفرق من هذا الوالي ويطلب من رجاله أن يدعوا
بعد صلاتهم . . . يارب يا قادر اكفنا شر عبد القادر !!

حكام مصر فقد رأى الأنجليز أن أفضل وسيلة يتدخلون بها في شؤون بلادنا أن يتخذوا جانب الإنسانية ويعلنوا الحرب على الرقيق حتى يستطيعوا بهذا أن يتدخلوا في أمور السودان وأن يشرفوا على بعض جهاته مما يشبه سيطرة الفاتح ؛ حاربوا الرق فيه لينقذوا بضعة آلاف في كل عام ، ولم يتورعوا بعد هذا بقليل من أن يرسلوا النار على المهدي فحصدوا ثلاثة أرباع السكان حصداً ، ثم لم يتورعوا عن أن يرسلوها على البوير فتأكلهم أكلا كانت تجارة الرقيق أمراً تنفيه الإنسانية وتأباه الكرامة البشرية ، هذا في نظر الناس كلهم ، بيد أنه كان في نظر الأنجليز سيلاً يمهّد لهم طريق استعباد مصر والتدخل في أمورها .

ولعل دليل هذه السياسة أنهم عملوا على توطيد سلطانهم في البحر الأحمر واتخاذ نافذة عليه تكون قريبة من السودان حتى يستطيعوا التقدم إليه من أقرب طريق ، كانت يدهم زنجبار وأوغنده على البحر الأحمر فمدوا سكة حديدية من سواكن إلى سنار ولم يمدوها من حلفا إلى دنقلة بل عارضوا في مدها معارضة شديدة حتى أهملها

اسماعيل بعد أن أنفق فيها زهاء أربعين ألفاً من الجنيهات
لكي يقطعوا صلة هذا القطر بمصر ويجعلوا سير الجنود
اليه صعباً مرهقاً بينما هم يسهلون أمرهم في الجنوب لعل
سلطانهم عليه لا يحتاج في يوم من الأيام إلى مساعدة
المصريين حتى إذا استقر لهم الأمر في مصر وبدءوا
يسترجعون السودان أخذوا إقراراً بأن لهم حق مناصفة
حكمه ووافقوا على مد السكة الحديدية فمدت بأموال مصر
وعمالها وسار فيها كتشنر على رأس جيش البلاد لفتح
السودان والقضاء على الثورة المهدية.

على هذا السبيل قضى الانجليز وأحكموا سيرهم ، كانوا
يعلمون أن مصير مصر اليهم فسعوا في توسيع سلطانها
ونشر لوائه ولكن أى سلطان ؟ هو سلطان العاجز ولواء
المتهدم ، ترفع علم مصر على جوبا حتى لا تطمع فيها
إيطاليا وتنشره على أعالي النيل حتى بحر الغزال كي لا تطمع
فيها بلجيكا أو فرنسا ، ثم تضع على السودان وأقاليمه كل
حاكم عاجز حتى يضطرب هذا الملك الشاسع ويصبح في
حاجة إلى عون الانجليز ؛ ثم يزينون لصاحب مصر فضل
الاكتشاف مرة وفضل التجديد والانشاء مرة أخرى

فيقترض المال وينفق على الجيوش ويقيم دعائم ملكه
على لون من الترف والأُنشاء حتى تصبح مصر جزءاً
من أوروبا، ! وتفتح له إنجلترا خزائنها ومصارفها لتمهد
سبل الأشراف على ماليته والتحكم في شؤون رعيته،
تقرضه كما يشاء بفوائد باهظة، حتى توقفت المصارف
عن اقراضه في بعض الأحيان فكان يضطر إلى
رشوتها لتقرضه من جديد، وكانت الرشوة تصل في
بعض الأحيان إلى مقدار القرض نفسه !

هذا في مصر نفسها، وليس أمر مصر وقفاً عليها بل هي
تخضع للاتراك لذلك اتجه الأنجليز إلى الاتراك أيضاً ليضمنوا
بسياستهم رضاءهم عن كل ما يفعلون في مصر والسودان؛
سعت إنجلترا في التقرب من السلطان حتى تلم بضعفه
وتتأكد من انحلاله يوماً فيوماً وتوعز إليه بعزل الحكام
المخلصين أو القادرين عن شؤون مصر أمثال عرابي
وشريف والبارودي ووضع المرنيين المغمورين كنوبار
ورياض، وتتقرب من ناحية أخرى إلى وزراء السلطان
وصدوره العظام. كل هذا كان لغرض واحد ساروا إليه
بدقة وحزم حتى تم لهم النصر على السلطان والخديوى كما

ينتصر الكفاء القادر على الطفل المواتى ، فاستولوا
على مصر والسودان جملة حتى يتحقق حلم رودس ،
وحتى يفيض هذا اللون الأحمر الذى يشبه الدم فيغمر
شرق إفريقية من الشمال إلى الجنوب ويتم بذلك خط
الكاب.....

أرأيت؟...



نهضة السودان

وثورة المهدي

لا يقيم الظلم وحده ثورة ، وإنما الذي يقيمها هو الشعور بالظلم ، والشعور بالظلم عند الشعوب أول درجات كمالها ، فلو أن المظلوم شعر بالظلم حقاً وأحس به إحساساً صادقاً لأبى على الظالم عدوانه واحتج وعارض ولجأ إلى الثورة وهي غاية المظلوم لحفظ كيانه ، والشعور بالظلم هو الشعور بكرامة النفس وتقديرها ، والنفس كريمة مالم تظلمها وتخدشها ، عظيمة مالم تهونها وتهوى بها ، والمظلوم إذا أحس الظلم عرف أن له حقاً يمكن المطالبة به وبدأ يفرق بين أن يحكم نفسه بنفسه أو يحكمه غيره جائراً عليه ظالماً له ، كذلك يدفعه الشعور بالظلم إلى أن يناجر خصمه ويرده عن حقه ويفوز عليه ، وهذه كلها شروط ينبغي أن تتوفر حتى تقوم للثورة قائمة ، لا تكفي المسببات الظاهرية التي يرد الناس إليها قيام الثورات وإنما لابد أن

تتمثل هذه الأسباب جميعاً حتى تستحيل إلى هذا الشعور
الذى حدثتك عنه ، فأذا ثار اليوم قوم ولم يثوروا أمس
فذلك لأنهم أحسوا اليوم ولم يحسوا أمس مع وجود
الظلم فى الأمس واليوم ، ومعنى ذلك كله أن الظلم يحمل
الى نفوسهم شيئاً من الحياة والانتعاش الذى يمهّد الطريق
للاحساس الكامل ، وليس كل ظلم يحمل معه انتعاشاً
فقد يهبط الظالمون بأرض فيخنقون أهلها خنقاً فلا يرتفع
صوت ولا يعارض إنسان على شدة ما يصبه الظالمون على
المظلومين كحكم الرومان أو حكم الأتراك وهذا مثال
مقطوع النظير فى التاريخ وقد يهبط فاتح بأرض فلا يكاد
يستقر بها حتى ينهض المظلوم يطالبه بحقه كما هبط الفرنسيون
ألمانيا أو المصريون السودان ، فكل شعب أحس الظلم
وثار عليه هو شعب له من شاعريته وإحساسه ما يفرض
علينا تقديره واحترامه .

بمثل هذا نستطيع أن نعبر عن الحكم المصرى فى
السودان ، فإن جنود مصر حملوا إلى السودان تيارات
الفكر وبشائر النهضة التى شملت مصر فى ذلك الحين ،
لذلك لم يثر السودان فى أول الأمر لأن مصر فيه ليست

غريبة عنه أو حديثة عهد به كما أنها حين نزلته رفعت عنه
أثقال حكمه وملوكه الطغاة ، فاستراح من الظلم حيناً ،
ثم بدأ الحال يتغير رويداً ثم حثيثاً بهذه العوامل الكثيرة
المتباينة التي أذاعت في السودانين روح السخط ، وملأت
نفوسهم ضيقاً وتبرماً ، ودفعتهم إلى الثورة في قوة وعنف ،
أما أسباب الثورة الظاهرية فكثيرة يحسن بنا أن نجمل
الحديث عنها إجمالاً ونستطرد لنعرف نتائجها وتقصي
آثارها في هذا البلد العزيز ، ونحب أن نلاحظ مع القارئ
أن حكام الأتراك يحملون أكثر التبعة بل التبعة كلها ،
فلولم يرزأ السودان بحكام كالدفتردار وحسن بك سلامه
وغيرهما لما وجدت ثورة المهدي هذه الاستجابة السريعة
التي بعثتها ناراً في مثل لمح البصر ، والمعروف المتوارد أن
الجعليين كانوا أشد أنصار المهدي لأن الدفتردار كان قد
نكل بهم وأذلهم وسبى نساءهم حتى أو جعهم فانطوا على
أنفسهم وتربصوا بالحكم المصري الدوائر ، ولهؤلاء الولاية
شر آخر هو الأفراط في جمع الأموال وامتصاص دم
الرعية ، ولم يكن هؤلاء الولاية يكتفون بما هم موكلون
بجمعه من المال المقدر وإنما كانوا يفرضون لأنفسهم

ضرائب أخرى قد تزيد على مال الحكومة نفسها ، وقد
كان من أثر هذا أن هجر الناس بلادهم واعتصموا في
الجنوب في القلابات وبحر الغزال ودارفور وما إلى هذه
الأصقاع البعيدة ولعل هذا هو السر في إصرار الولاة
على فتح هذه البلاد وضمها الى نفوذهم .

وللولاة الأتراك في ظلم الناس حيل تبعث الألم
في النفس وتدعو الانسان إلى أن يشعر بأن المهدي
لم يرتكب إثماً حين ثار ، وما يجرم المرء حين يرفع
رأسه يأتى الظلم ويرضى الموت من دونه فقد اهتدى
حاكم تركى إلى طريقة توفر عليه جهداً عظيماً في عقاب
الناس فكان يضع في ثياب الرجل هراً ثم ينهال ضرباً
على القط فيفتك الهر بلحم الرجل نهشاً وخدشاً
إلى هذا لم يكن هناك عدل في تقدير الضرائب فقد ثقلت
وطأتها على الفقراء وخفت حتى انعدمت على الأغنياء .

ومن هذه الأسباب منع الرقيق فقد كان مورداً
فياضاً لربح التجار من الشماليين أو الأخطايط بين العرب
والسودانيين ، كانت وطأة الرقيق ثقيلة على قبائل
السود في الجنوب فأحس العرب بما أصابهم من

الخسارة بهذا المنع ، ورحب الرقيق بأعتاقهم وطفقوا
يتركون سادتهم بغير سبب ، ثم كان بعض هؤلاء السادة
يؤدون كثيراً من الضرائب رقيقاً فإذا انعدم هذا المورد
لم يجدوا ما يدفعونه من المال والمحاصيل وثقلت عليهم
يد الجاني وودوا لو ترفع عنهم ، ولعلمهم حسبوا أن
للامر علاقة بالدين رأوا أن الذين ينفذون هذا القانون
من الفرنجة أو النصارى على حد تعبير السودانين من
أمثال غوردون ويكر .

ولم يكن أهل السودان سواء في الظلم النازل بهم بل
خلص عرب الشايقية منه لأن الفاتحين رأوا فيهم
استعداداً للعمل في الجيش وقدرة على المعاونة في أمور الحكم
فأعفوه من الضرائب ورفعوهم فوق عامة السودانين
درجات فتقل هذا على الجعليين ورغبوا في الخلاص منه .
وللسألة بعد هذا وجه آخر لا يحسن أن نغفل عنه
هو امتزاج المهديّة بالفكرة الدينية وادعاء زعيمها محمد
احمد دعوة المهديّة ، وهذه دعوة قلبا كان يعوزها الانصار
بين الزنوج والمغاربة والأعاجم الذين أدركوا الاسلام
وآمنوا به على جهل بأصوله وطبيعته فجازت عليهم وآمنوا

بها على رغم ما كان يبدو على مهدي السودان من زيف
وقلة اقتدار في أمور الدين وميل إلى الهمجية والفوضى
في أمور الدنيا .

فأذا قامت الثورة لم تجد ما يصدّها أو يعوق تقدمها ،
لم تهتم لها الحكومة في أول الأمر ، حسبتها فورة عاجلة
لا تلبث أن تخمد من نفسها أو حين يوجه إليها نفر من
الجنود ، فأذا اشتدت وقامت وأحست بضرورة إرسال
قوة كبيرة إليها لم تجد ما يكفي وخاصة حين انتصر
المهدي على بضعة قليلة من الشراذم وجهت إليه فقضى
عليها قضاء مبرماً ، تشجع هو وسكن الخوف منه قلوب
الناس فزاد أتباعه قوة وزاد أعداؤه ضعفاً ، كان
في السودان كله نحو ثلاثين ألفاً من الجنود بين مصريين
وباشبوزق وأتراك وجعليين مفرقين بين دقله وبربر
وسنار والقلابات والغضارف وكسلا وهرر وكردفان
وبحر الغزال ، منشورين في هذه البطاح الشاسعة فسهل
القضاء عليها واحدة واحدة ولم تستطع حكومة
مصر إرسال نجدات جديدة لأنها كانت في شغل بثورة
عرابي التي اشتعلت في هذا الوقت تماماً .

من الحق أن نقرر أن محمداً أحمد لم يكن رجلاً عادياً بل كان ممتازاً في شخصيته وثقافته واتساع ذهنه وقدرته على العمل المنتج الصحيح ، فقد تصوف في بدء شبابه وأكب على درس الدين وانقطع له حتى كان يبكي في الصلاة ...! وينصت ذاهلاً إلى شيخه وهو يلقي عليه الدرس ثم أنشأ لنفسه طريقة خاصة فأقبل عليه الناس وصار له أتباع ومريدون فانصرف ذهنه إلى ماحوله وأحس عسف ولالة الأتراك وفكر في أن يكون له سلطان يناوئهم ويردهم إلى حدودهم أو يخلص منهم جملة ولعل تلك إحدى طبائع الإسلام حين يتأصل في النفس الزكية العزيزة فيشعرها بحقها ويدفعها إلى رفض الظلم وإنكاره ؛ وكان محمد أحمد يطوف بقومه ناطحاً واعظاً فأقبل عليه الناس يشكون إليه جور الحكام ويرجون أن يدعو الله لخلاصهم فكان يعدهم بهذا فيدخلون في طريقته ؛ وعظم قدره في نفوسهم ورجوا الخلاص على يديه ، وتهامس البعض بأنه المنقذ الذي سيملاً الدنيا نوراً وعدلاً بعد أن ملئت ظلاماً وجوراً أي أنه المهدي المنتظر ...

انظر لضم
المقالة
في تاريخ
الشيخ
سادة

وترددت هذه الدعوى على ألسن الاتباع حتى وصلت
إلى مسامع محمد أحمد فلم يرَ ضيراً عليه في تصديقها والدعوة
إليها ، ثم كان أن أقبل عليه رجل اسمه عبد الله التعايشي
من البقارة فما أن رآه حتى أغمى عليه مرتين ثم تقدم إلى
محمد أحمد حبواً على الأرض والدمع يترقق في عينيه ثم
قبل يده وقال له إنه المهدي المنتظر شكلاً وهياً وأن أباه
تحدث إليه في أمر المهدي ووعد به أن يكون وزيره فقبل
المهدي مبايعته له واتخذ وزيراً ، ثم أخذ تلاميذه وأتباعه
وخرج بهم يدعو إلى الزهد والدين والتقشف وأشاع في
الناس أن الله اصطفاها لهدايتهم فأمن به خلق كثير ، وكأنما
قدر أن الحكومة ستعارضه في دعوته فوجه همه إلى
اختيار مكان حصين وقوم أقوياء يصلحون لحمايته والذود
عن دعوته فاستقر رأيه على مكان يقال له جبل قدير فنزله
ثم شرع يرسل كتباً تحمل دعوته إلى القبائل وذوى
السلطان من أهل السودان فأمن به نفر عزيز ، وترددت
في كتبه دعوى المهديه ودلائل نبوته فزعم أن رسول
الله « صلعم » يتردد عليه يقظان ونائماً ، وأنه أوحى
إليه بمهديته وأكد له أن الله ناصره وآخذ بيده وأوصاه

بسته أمور « الحرب والحزم والعزم والتوكل والاعتماد
على الله تعالى واثقان القول » ثم أضاف إليها أربعة هي
« قلة الطعام وقلة الشراب والصبر وزيارة السادات »
فاكتملت أسس شريعته عشرة لا ينكر أحد أن بعضها
سبيل لكل رفعة وكل خير وأن الشرق لو سار عليها لكان
حاله غير هذه الحال ؛ وهي تدل دلالة صادقة على أن
المهدي لم يكن أفاقاً ولا فارغاً وإنما كان رجلاً قادراً حازماً
بل لعله كان أحزم المسلمين في ذلك الزمان ، ولعله يفوق
سلطان آل عثمان نفسه تديناً وحزماً وصدق بصيرة . ولعله
كان ينجو من هذه الخاتمة المحزنة لو لم يقدر له الزمان أن
يبعث أيام المدافع والنيران .

لا غرابة أن يتحول المهدي إلى السياسة وتوجه دعوته
إلى إنقاذ الوطن السوداني لا إنقاذ المسلمين كافة ، لأنه لم
يكن هناك سبيل إلى نشر سلطانه الروحي على الناس جميعاً
خارج بلاده ، كان لابد حين تحول إلى السياسة أن يصطدم
بالحكومة التي هبطت بمواطنيه إلى الخضيض ، لم يبدأها
هو بالعداوة بل بدأتها هي فتحرشت به وأعلنت سخطها
عليه وتبرمها بحركته ؛ وكان المهدي يشعر بيد الحكومة

ثقيلة على السودان وأهله وهو لا يستطيع أن يغلق أذنيه
دون هذا الصراخ المنبعث من المظلومين الذين خربت
ديارهم وأشرفت حالهم على اليأس والهلاك ، وقد لقيت
دعوته سخرية رجال الدين الاسلامي الرسميين كعلماء
القسطنطينية ومصر ، ولقي في سخريتهم عداء صريحاً فوصموا
دعوته بالكذب وحذروا الناس منها ، فأحس الرجل
صراحة الحرب يشهرونها عليه في غير تردد ولا إبطاء
فاستعد لها وتوالت رسله الى أصحابه وأتباعه لكي تثبت
من إخلاصهم للدعوة وإيمانهم بها ؛ فلقى منهم عضداً قوياً
وعوناً ثابتاً فقد بايعوه على الموت ، فبلغ من اعتداده
بنفسه بعد ذلك أن أرسل إلى رؤوف باشا حاكم دار الخُرطوم
ينصحه بالدخول في دعوته !

بدأت الحكومة تسير اليه الحملات ، وكانت القوى
التي ترسل اليه ضعيفة مفككة أكثرها من الأتراك
والجعليين ، وكانوا يشعرون بأنهم مسوقون إلى قتال لا رجاء
منه ولا خير فيه ، ولعل دعوة المهدي أثرت في نفوسهم
نخشوا قتاله ورسول الله يحبه ويظهر له الآن بعد الآن !
وكان أنصار المهدي أقوياء شجعاناً شديدي الإيمان بحقهم

قد بايعوا صاحبهم على الحياة والموت، وكانوا كلما تذكروا
ظلم الحكومة تأججت العداوة في صدورهم واستطاع المهدي
أن يبيد حملتين أرسلتا اليه فذاع صيته وشاع ذكره وعظمت
هيئته في نفوس مواطنيه وزعم الناس أن الرصاص لا يؤثر
فيه وأن بركته تحوله ماء ! وأن سيوفه بتارة شديدة الفعل .
كانت هيئة الحكومة إلى هذا الوقت قوية فبدأت
تنزعزع وتقل سطوتها وأخذت القبائل تخرج عن طاعتها
وتعلن عصيانها عليها حتى عمت روح الاستياء والفوضى
جميع السودان ، واستقرت هيئة المهدي في الصدور حتى
زعم الناس أنهم رءوا اسمه مكتوباً على ورق الشجر ويبيض
الطيور بما دعا مواطنيه إلى الدخول في دعوته من كل
صوب وحذب فأقبلوا عليه من سنار وكردفان ودارفور .
هنا أدركت الحكومة أن هذا الرجل ليس شيئاً هيناً
وأن حر كته تحتاج منها إلى العناية الشديدة والجهد العنيف ؛
وكانت كتبه ورسائله تنشر في كل مكان فاطلع عليها العلماء
الرسميون فخرضوا الحكومة على حربه والانتقام منه ،
وكانت منشوارته قوية اللهجة ؛ شديدة العبارة في صيغة أدبية
لا بأس بها مما يدعو إلى الاعتقاد بأن كان في ركابه نفر من

الأزهريين وتومىء هذه الكتب والمنشورات الى شعور
بالقوة واعتزاز بالنفس واستخفاف بالحكومة وجيوشها.
أسرعت الحكومة فعزلت رءوف باشا حاكم السودان
وأقامت مكانه رجلاً آخر اشتهر بالقدرة والحزم ، وكان
في مقدوره أن يقمع حركة المهدي لو ان السياسة
الانجليزية لم تتدخل لأقاتله وإعادة الأمور إلى أسوأ مما
كانت عليه . وكان المهدي قد رتب أموره ونظم قبائله
وجنوده وأقام لنفسه أربعة خلفاء هم عبد الله التعايشي
واثنين آخرين وعرض كرسى الخلافة الرابع على محمد
السنوسى شيخ السنوسية ولكنه أبى فظل شاغراً... وفي
هذا دلالة على دهاء الرجل وعمق حيلته فهو يرجو
السنوسى ليظفر بعطف كثير من المسلمين ، ويعرض بقية
الكراسى على قواده ليستجلب رضاهم بهذه المناصب التى
لا تخلو من فكاكة ، إذ كيف يوجد خلفاء أربعة مع الرسول
فى آن واحد ؟ اللهم إلا أن يكون قد توقع الموت لنفسه
ولخلفائه واحداً بعد واحد حتى يصبحوا أربعة ، ولم يكن
ينقصه إلا أن يعين نفراً من أتباعه ليكونوا الأمويين
بعد مقتل خليفته الرابع من خلفائه الراشدين !! ...

قامت الثورات في كل مكان وارتدت جيوش
الحكومة وانحصرت في أماكن متفرقة ، وتقدمت الثورة
حتى شارفت على الخرطوم وتوقع أهلها أن يدخل عليهم
الدراويش فباتوا يساورهم الخوف فكان أول عمل قام به
عبد القادر باشا هو تحصين الخرطوم اتقاء للطوارئ

اتجه المهدي بقواته إلى كردفان ودارفور ليتخذ هذه
الجهة الشرقية مقاماً له ومركزاً يناوئ به الحكومة
ويحتمى فيه ، ولسنا نعتقد أنه كان يعنى كثيراً بالاستيلاء
على الخرطوم أو على السودان جميعه ، لأن الخرطوم
لم تكن المدينة التي يطمع فيها ولم يكن من صالح المهدي
أن يتخذها عاصمة له ، ثم إنه كان يخشى الحكومة وجنودها
ولا يجسر على مهاجمتها في عاصمتها وخاصة بعد أن أقيم
عليها عبد القادر باشا وهو رجل قاس عنيف استطاع
أن يقف الثورة في سنار وفي كل الجزيرة وشرقي النيل ،
فأخذ المهدي يفكر في أماكن أخرى ليتحصن فيها فلم
يجد أفضل من الأبيض مكاناً يأوي إليه بجنوده

كان حصار الأبيض من المشاهد الرائعة التي لا تنسى
في تاريخ مصر والسودان ، فإن حامية هذه المدينة قضى

عليها بالتسليم لأن موصلاتها مع الخرطوم مقطوعة لقيام
المهدية في الطريق فلا سبيل إلى إنقاذها إلا بأبادة المهدية
كلها ، وكان هذا أمراً عسيراً في تلك الأيام . كان السبيل
إليها عن طريق سنار وهذا على بعده غير مأمون الروحات
وهو غير ميسور على أية حال .

وللسردان ميزة عظيمة انتفعت بها المهدية أعظم
ارتفاع ، هو امتداد أصقاعه على غير حد وقحولة أرضه
في لون مخيف وكثرة صحاريه وحزونة مجاهله الشاسعة ،
فهو فيما خلا الشريطين المحاذيين للنيل صحراء واسعة تنجم
فيها الواحات عند نبع ماء أو مسرى نهر أو مهبط
أمطار ، فبين العمران والعمران نجد صحراء واسعة يشق
على الإنسان عبورها في سهولة ومن غير عناء ، فلكى تنفذ
من مصر إلى الخرطوم لا بد أن تحمل طعامك وشرابك
الذى يكفيك في عبور صحراء النوبة التي يسمونها
العظمور أو عظمور أبو حمد ، وهي رمال تمتد على جانبي
الناظر حتى تجتمع بالسماء ، هي متاهة متشابهة الشكل
والموضوع تصاحبك حتى تصل الخرطوم ، فإذا رغبت

في الوصول إلى مركز العمران الثاني في كردفان كان
لا بد من أن تعبر صحراء شاسعة لا تقل وعورة وحزونة
عن العظمور ؛ وإذا تطلعت إلى دارفور عدت إلى
الصحراء مرة ثالثة وهكذا في اتجاهك نحو كسلا أو
مسيرك إلى أعالي النيل حول غندكرو .

فهذه الصحارى والغابات والقفار والجبال حصون
طبيعية قيضها الله لهذا البلد فهي تعين أهله على الغاصب
وتحول من ناحية أخرى دون أن يكون هذا القطر
وحدة واحدة ؛ ولهذا رأيت دولة في دارفور ودولة
في كردفان وأخرى في سنار ، وقبائل شتى منعزلة عن
العالم تماماً تعيش في السوبات وأعالي النيل ؛ هذه الصحارى
نفسها كانت تحارب إلى جانب المهدي فتنصره نصراً
عظيماً ، فأن الجيش المصرى كان يرسل من القاهرة قوياً
عزيزاً حتى إذا سلك العظمور خارت قوى جنده وهبطت
عزائمهم فيصلون إلى الخرطوم نصف منهزمين ، ثم
يتوجهون إلى كردفان ويحتويهم الصحراء وتعلن عليهم حربها
قاسية فيصلون إليها أشلاء أو كالأشلاء وهناك يستقبلهم
المهدي ويودعهم إلى الموت حيث لا رجعة ولا عتاب .

هذه حقيقة لا يجب أن نغفلها من حسابنا ما دمنا
نريد فهم تطورات المهديّة الفهم الصحيح ، فكما أن أرض
روسيا هزمت شارل الثاني عشر و نابليون فكذلك
هزمت أرض السودان جيوش مصر وما فيها من فلول
الانجليز ، وليس معنى هذا أن السودانيين لم يكونوا أهل
شجاعة واستبسال بل الحق إنهم من أبسل الأمم
الاسلامية إن لم يكونوا أبسلها جميعاً ، وما قولك في قوم
كان سلاحهم السيف وسلاح أعدائهم المدافع وهم بعد
منتصرون ؟ وما قولك في المهديّ تصديه رصاصة في كتفه
ويتفجر الدم منها فيطرح عليها ثوبه ويمضي في القتال
حتى لا يرى أنصاره جرحه فتخور عزائمهم ، وما بالك
في رجل يهجم على المدفع حتى يصل إليه ولا يزال يضربه
بسيفه حتى يعطله والرصاص ينهال عليه ؟

هذه عناصر لا ينبغي أن نهملها إذا أردنا أن ندرس
الثورة المهديّة على ضوء الحقائق الصريحة ، وإلى جانب
ذلك لا يجب أن ننسى أن السودانيين كانوا في جهل تام
بقوى عدوهم بحيث استضعفوه في قوتهم وهجموا عليه
هجوماً عنيفاً دون ترتيب معروف ولا خطة منظمة

فأدر كم التوفيق من حيث لا يحتسبونه؛ لو ان هؤلاء
القوم قدروا في ثورتهم أن الحكومة ستواجههم بعنف
مهما ضعفت قوتها وتغالبهم هذا الغلاب الطويل حتى
يفنى منهم هذا العدد العظيم لترددوا بعض الشيء
واقصدوا في هذا الاتساع الذي دفعوا إليه دفعاً .

يعنينا بعد هذا أن نمر سراعاً على حوادث الثورة
المهدية، فقد توجهت همه المهدى بعد انتصاراته الصغيرة إلى
زعامة السودان، بل لعل الظروف هي التي أملت عليه موقفه
الجديد موقف المحامي عن السودانيين والآخذ بثأرهم والمعيد
كرامتهم، فأن السودان كله بأقطاره الأربعة كان يشكو
الظلم ويرجو الخلاص فما كادوا يتسامعون بنصر المهدى
وانخذاً الحكومة أمامه حتى هب الجميع إلى صف هذا
السوداني المقدس الذي استطاع أن يهزم الجنود المصرية
ويحيل الرصاص ماء ! والذي يزوره النبي في النوم
واليقظة ! والذي ينوي أن يملأ الدنيا عدلاً بعد أن
ازدحمت بالظلم والعدوان، فانهالت عليه الشكاوى وجد
في طلب عدله كل الناس، وراسله كبار القوم يطلبون
إليه أن يسرع لأنقاذهم، وأعلن الكثيرون منهم راية

العصيان في وجه الحكومة القائمة بالأمر ، بل إن الجعليين
هبوا هبة واحدة ليأخذوا بثأرهم من مظالم الدفتردار ،
ولم تعد الثورة أنصاراً حتى بين القبائل الموالية للحكومة
وذلك لأن دعوى الدين كانت قوية ساحرة لم ينج من
سلطانها أحد في السردان ، وقد كان المهدي على نصيب
وافر من الذكاء والقدرة بحيث استطاع أن يلهب عواطف
مواطنيه حتى هتفوا باسمه جميعاً

أراد المهدي أن يوحد كل هذه الجهات التي قامت بها
الثورة فبث رسلاً من عنده ليأخذوا له بيعة القوم جميعاً ،
فبايعه القدر الأكبر من السكان ، وبقي عليه أن يسير
بجموعه نحو هذه الأقطار ليفتحها ويقضي على الجيوش
المصرية الباقية فيها

توجه المهدي بقواته إلى كردفان فقد دبر أن يستقل
بهذا الجزء أولاً وينشر عليه سلطانه ثم يتحصن فيه ،
وكانت كردفان ضعيفة الحامية ليست بها فرقة أو فرقتان
من الجيش المصري يقودها رجل اسمه سعيد باشا ومعه
نفر من الضباط وكانت حالة الجند النفسية ضعيفة بعد
هزائم إخوانهم في الشمال وقد أقبل عليهم المهدي بعد

هزيمة اقرانهم في هذا الشمال ، وكان جنوبهم محوطاً
بالأعداء فلم يروا بداً من التسليم وحاصر المهدي وأنصاره -
المدينة وقطعوا عليها كل سبيل حتى أصبح تسليمها أمراً
واقعاً ، وزاد الطين بلة أن الجعليين تواطؤوا مع المهدي
وأرسلوا إليه رسالهم يعلنون له تأييدهم وتسليم المدينة
ووقوفهم بجانبه ضد حاميتها ، ولبت الجنود المصريون
يلتمسون المعونة والمدد فلم تأتهم المعونة ولم يرسل إليهم
المدد ، ووصل المهديون إلى المدينة بعد صراع عنيف مع
الصحراء جياعا أو كالجياع كعادتهم في كل واقعة من
الوقائع حتى إذا بلغوا مدينة من المدن أتوا على ما فيها
حتى كان بعضهم يموت من الأسراف في الطعام .

وكان مسيرهم هذه المرة في رمضان فكان العبء
عليهم ثقيلا ولكنهم احتملوه في صبر وجلد فلما سلت
إليهم الأيضا بعد معارضة يسيرة من سعيد باشا لزملائه
الضباط ، دخلها المهدي فأحسن إلى ضباط الحامية
وأكرمهم ، وبايعوه وخلعوا ثيابهم مرغمين واتخذوا
جبب المهدي بديلا عنها ، ولكنهم استمروا يطلبون العون
سراً حتى كشف أمرهم فأمر بهم المهدي فقتلوا جميعاً

واكتفى المهدي بهذا التوفيق وأرجأ فتح سنار إلى
حين يجد من نفسه القدرة على ذلك ، ولا شك أنه كان
يخشى الحكومة وقواتها ، وكان يبنى نفسه بأهماله كما
صمم على ألا يحتك بها .

أيقنت الحكومة المصرية أن الأمر يستدعي
أكثر من هذه العناية البسيطة التي لم تفد حتى الآن ،
استبان لها عجز رؤوف باشا فعزلته وأقامت بدلا منه
رجلا قادرا عرف بالكفاءة والحزم ، وكان قديرا
يستطيع أن يحل هذا المشكل الذي كاد يستعصي أمره
فإذا وصل إلى الخرطوم فقد حصنها وأمنها حتى استقر
أهلها وكان القلق يساورهم في الليل والنهار ، ثم بعث
بقائد من قواده فضرب سنار وقضى على حاكمها الذي
أقامه عليها المهدي فعاد الأمر إلى المصريين وهدأ الأمن
واستقرت الأحوال ، وكان حاكم السودان الجديد رجلا
جسورا صبوراً حتى لقد شبه بعضهم الثورة بثعبان طويل
وأن ضرباته تصيب الجسد ولا تصيب الرأس فقال
« لا أزال أقطع في الجسد حتى آتى على الرأس »

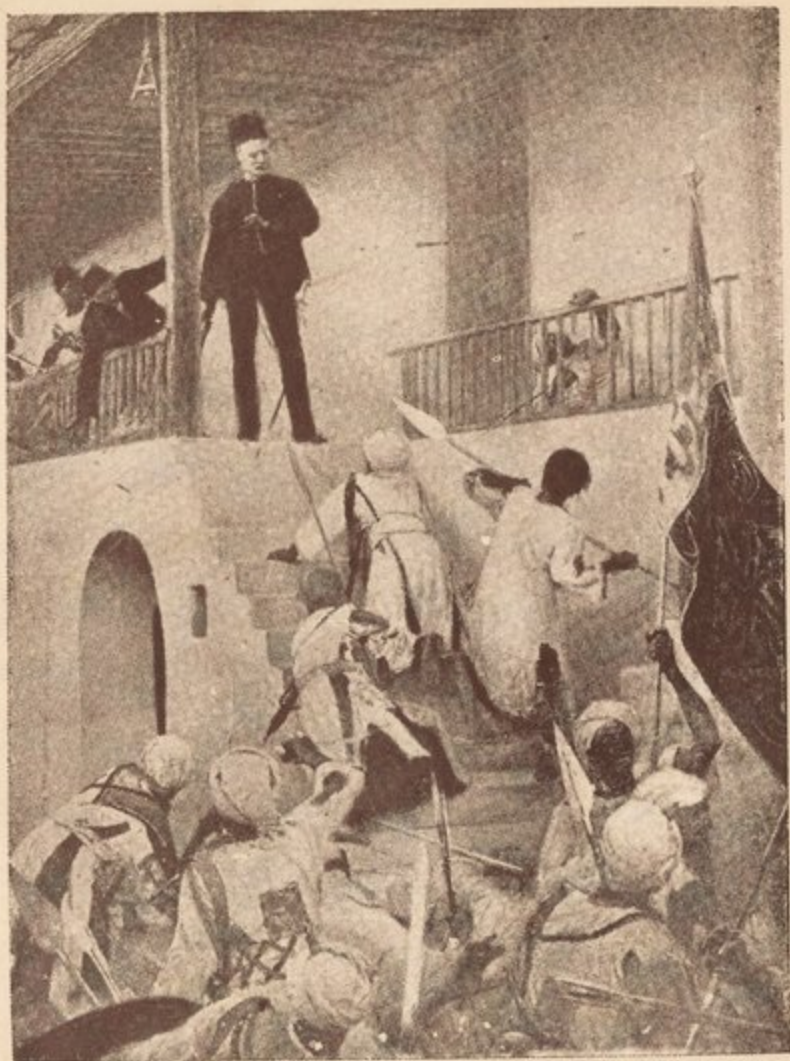
هنالك أدركت الحكومة البريطانية ما يجب أن تفعله ؛

لاحت لها الثمرة فلم تهمل اقتطافها ... وهل يخطيء الانجليز
وجه الصواب في هذه الأمور؟ هل يتوانى الانجليز في هذه
اللحظات الرهيبة التي تسنح لهم فلا تفلت منهم؟ حقاً إن
الانجليز لم يدبروا الثورة المهدية ولم يعملوا لها بيد أنهم
رحبوا بها وعرفوا أنها في صالحهم، فهي تظهر عجز
مصر وعدم اقتدارها على إقامة حكمها صالحاً في هذه البلاد،
وهي تعطيها لذلك فرصة طيبة تتدخل فيها، وكانت انجلترا
قد دخلت مصر قبل ذلك وقضت على الثورة العرابية،
وقد هالها أن يتمكن عبد القادر باشا من إعادة الأمور إلى
نصابها وتخوفت أن يعود الأمر فيستقر لمصر في السودان؟
نعم إنها كانت تستطيع أن تنال السودان بالحرب كما أخذت
مصر ولكنها حريصة على أموالها وبنيتها فقد عرفت أن
في مقدورها يوماً ما بعد أن تخلي مصر السودان أن تستخدم
مال مصر وجنودها وكل ماملكت يمينها في هذا العمل،
وما عليها لتنفيذ هذا إلا أن تشير على المصريين بالخطبة
وعليهم هم تنفيذ المشورة.

هذه السياسة الجديدة القديمة التي قررها الانجليز
وبدءوا يسعون في تنفيذها هي إخلاء السودان وإعادة.

فتحه من جديد؛ وتمييداً لهذا أحبوا أن تستعر الثورة في
السودان أشد مما كانت عليه فأوعزوا إلى آلائهم من
المصريين بدعوة بطل مصر عبد القادر باشا من السودان،
كما أساءوا إلى الزبير من قبل وحرموه الرجوع إلى موطنه
في أيام الثورة ليقف بجانب عبد القادر، وكان في وسع
هذين الرجلين وحدهما قتل الثورة مهما عظم قدرها





مقتل غوردون باشا



أخلاء السودان

إلى هنا استطاع الانجليز أن يظهروا الحكومة المصرية بمظهر العاجز الذي لا يستطيع أن يتولى أمور السودان، ونشطت إنجلترا من جانبها نشاطاً كبيراً في إذاعة أخبار الثورة المهدية والمبالغة فيها حتى زعموا أنها تهدد حدود مصر والمواصلات البريطانية على البحر الأحمر ! ثم أقبلوا على الخليفة العثماني فزعموا له أن سلطان المهدي خطر على سلطانه، وأن دعوته تمتد الى مصر ولا تلبث أن تسودها وتسود شمال أفريقيا كلها، بل لا يبعد أن تعم دعوته الشام أيضاً، وساعدتهم على ذلك قيام عدد من الثورات في الشام، وأذاع المهدي منشوراً على أهل الصعيد وعلمائه يدعوهم إلى رسالته ! فلم يلتفت إليه أحد منهم ثم انصرف الانجليز إلى الخديوى توفيق - وكان شديد الثقة بهم - وأسروا إليه أن السودان عبء ثقیل عليه، يكلف مصر سنوياً ٦٤٠ ألفاً من الجنهات لا يرد لها غير ١٦٠ ألفاً منها، وإنه

ليأخذ من نشاطها ووقتها أيضاً ، والخير الخير في تركه
وإخلائه فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ومحدثنا ملز
فيقول « إن الحكومة البريطانية طلبت من بارتنج أن
يبلغ الحكومة المصرية أن السودان يجب أن يخلى بأسرع
ما يمكن ، وأن أى وزير يعارض في هذه الخطة يجب أن
يعزل »

وانهالت البلاغات على بيرنج وكلها تلح في أن يخلى
السودان وأن تنسحب الجنود المصرية الى حلفا ، وأخذت
التيمس تلح هي أيضاً في إخلاء السودان في شىء من العداء
والسخرية اللاذعة ، وسارت معظم الجرائد الانجليزية
على غرار التيمس وقالت في ٧ يناير ١٨٨٣ « إن الأمور
في مصر تغيرت ولم يعد السير إيفلن بارتنج يعطى نصائح
بل يصدر أوامر » بل ذهبت جريدة محافظة إلى أبعد من
هذا فزعمت « أن الأمن على حدود وادى حلفا أمر يمس
سلامة الإمبراطورية وأن مسألة الجلاء عن مصر تتعلق
كل التعلق بمسألة إخلاء السودان »

عرض الأمر على مجلس نظار مصر ، وكان على رأسه
شريف باشا وهو رجل يمتاز عن معاصريه من الساسة بأنه

وطني مترفع شديد الأباء ، وتناقش مجلس النظار في هذا
الموضوع فلم يجدوا أى مسوغ لهذا التصرف الشاذ . . .
أليس الأولى من إخلائه أن تحارب الثورة فيه وأن يقضى
عليها فيستقر الأمر لمصر من جديد ؟ أليس هناك أقاليم
بأسرها خاضعة لمصر لم تمسسها الثورة بعد ولا يزال أهلها
يدينون لمصر بالولاء ؟ فقيم إخلاؤها ثم إعادة فتحها ؟
هكذا كان المنطق المعقول الذى يراه العقلاء ، ولكن
الانجليز يريدون . . . إذن فليعتزل شريف وليحل محله
نوبار ليقر هذا الأمر ولتعلن الحكومة المصرية إخلاء
السودان .

كان من السهل أن يعتزل شريف الحكم ويليه نوبار
اللين المواتى بيد أنه ليس من السهولة إخلاء السودان
وأقاليمه الواسعة والجنود المصرية مبثوثة فيه فى كل مكان
من خط الاستواء الى سوا كن الى سنار الى الغضارف الى
غير هذه الجهات المترامية الأطراف ، كيف يمكن سحب
هؤلاء الجنود والنجاة بهم ، ألا يعد إعلان إخلاء السودان
بمثابة حكم بالأعداء على هؤلاء الجنود الذين يحيط بهم
الأعداء ثم تأمرهم الحكومة بالتقهقر بعد ذلك ؟ ثم إذا

كان الغرض حماية مصر فهل إخلاء السودان يحميها؟ هل سحب جنودها منه يقوى رايتها في وادى حلفا ويزيد هيبتها في عين المهدي؟ ثم ألا يكون انسحاب الجنود المصرية من السودان داعياً الى إنتقام المهدي من الجهات التي بقيت موالية لمصر في هذا الامتحان العسير؟ أ كبر الظن أن النتيجة المحتومة هو الزراية بهيبة مصر وتشجيع المهدي على غزو الصعيد! وإن لم يكن قد فكر عملياً في هذا .

ثم كيف تترك الحكومة المصرية هذا الشطر من بلادها وقد دفعت في تنويره وتجديده ملايين الجنيهات ، كيف تتركه وفيه منشآتها وأبنيتها وقاطراتها وبواخرها ومعداتاها؟ كيف تترك كل هذا الذي أقامته بعرق الفلاح وبذلت في سبيل هذا الفتح دم أبناءها وروت به أرض السودان؟ ثم تنسحب بعد ذلك فيخربه رجال المهدي وهم قوم على الفطرة فلا يبقون على أثر من هذه جميعاً ثم تعود فتفتحه من جديد كخطة الانجليز بدم الفلاح المصرى المسكين... ولكن انجلترا تريد .

أما كان الأولى أن ترسل مصر قوات جديدة إلى السودان فتحصن الخرطوم وتهاجم المهديّة في كردفان وفي سنار وتعيد النظام وتؤمن حدود مصر لو كانت الغاية تأمين النظام وتأمين حدود مصر حقاً؟ إنهم بهذا يضمنون سلامة الجنود المصرية المحصورة في سواكن وبربر وكردفان وغندكرو وقطر الاستواء؟ إنهم بهذا يضمنون سلامة المنشآت والمباني وأوراق الحكومة وسجلاتها وما أنفق في سبيل هذا كله؛ إنهم بهذا يرفعون سمعة مصر لو كان لسمعة مصر وزن في هذا الزمان. ولكن انجلترا تريد...

هي تريد أن ينسحب المصريون من السودان ويخلوه إخلاء تاماً ثم يعودون إلى فتحه بجيوش مصر وقيادتهم فيكون لهم حق النصف في حكمه؛ ولعل معترضاً يقول وما كان ضررها لو أنها فتحتة هي بنفسها كما فتحت مصر؟ بيد أنها أذكي من أن ترتكب هذا الخطأ؛ إنها في الحالة الأولى تستطيع أن تستخدم كل ما تملك مصر من مال وجنود وآلات وهي عليها أن تقدم القواد بينما مصر تقدم الجنود؛ هي ترسم الخطط ومصر تدفع المال وتعمل على التنفيذ ثم يكون الأمر بعد هذا لها وحدها.

رفضت وزارة شريف باشا أن تسحب الجنود
المصرية من السودان فاستقالت وأعقبتها وزارة نوبار باشا
التي أصدرت فرماناً بتولية غوردون باشا أمر السودان
ودعوة المصريين منه جنوداً وموظفين وتجاراً (١)
وتسليم البلاد لسلالة الملوك الأولين ، وكان كتاب
الخديوى مضحكا حين طلب تسليم السودان إلى ملوكه
الأول وهو يعلم أن ليس في السودان من يستطيع أن
يقف للمهدى أو يحاوره في الولاية على تلك البلاد ، ثم
إن غوردون سار إلى الخرطوم فنزلها مجرداً من كل قوة
وهناك طلب الأعيان وأراد أن ينظم الأمر فجمع دفاتر
الضرائب والسياسات وآلات العذاب وحرقها على مرأى
من أهل البلاد ؛ ثم أذاع في الناس أن محمداً احمد قد عين
سلطاناً على دارفور ، فقوى هذا من شأن المهدي وأذاع

(١) قال الخديوى في كتابه الى غوردون « ان الغرض من ارسالكم
الى السودان ارجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار الى مصر وذلك مع
حفظ النظام في البلاد بأعادتها الى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح
المصرى ولنا مزيد الثقة أنكم تتخذون أفضل الطرق لإتمام هذه المهمة طبق
رغبتنا والسلام »

إعجاب الناس به فتقاطروا عليه ، وأضاف غوردون إلى ذلك أن السودان قد فصل عن مصر تماماً ، وبعث في طلب الزبير باشا على أن يولى شؤون بلاده وتعطى له قوة حاكم مطلق في كل نواحي الحياة السودانية مقابل أجر ثابت قدره ستة آلاف جنيه في العام ، كما أعلن إباحة الرقيق والمتاجرة فيه .

غير أن الحكومة الانجليزية رفضت رفضاً باتاً أن يعود الزبير إلى السودان وهو صديق مصر وله في حبه تاريخ . وليس في وسعها أن تكل إليه شؤون بلاده وهو رجل قوى قادر وهي تريد في دخيلة نفسها وقبل كل شيء تنفيذ الخطة المرسومة بأخلاء السودان .

وبقى غوردون في الخرطوم حائراً بين نواياه الطيبة وبين حكومته الغادرة لا يدري ماذا يصنع وال دراويش يتقدمون إلى الخرطوم ابتغاء حصارها والقضاء على البقية الباقية من قوى المصريين في السودان ، وفي مارس ١٨٨٤ وقعت واقعتان مهمتان أعقبهما حصار الخرطوم ، حيث أرسل المحاصرون إلى غوردون كتاباً يطلبون فيه تسليمه بالحسن ، ولكنه رد على كتابهم مهزئاً المهدي ودعوته

المهدية فما كان من المهدي إلا أن أرسل اليه كتاباً (١)
شديد اللهجة ، عنيف الأسلوب ومعه هدية هي لباس
للدراويش . ركلها غوردون بعد أن سمع ترجمة
الكتاب .

وفي أثناء ذلك كانت الأنباء تترى على الخرطوم
بسقوط المدن في أيدي الثائرين مما ثبط الآمال وخيب
الرجاء ، وانتهى الأمر بسقوط الخرطوم وهزيمة الجند
المصريين من باشبوزق وسود ، وجرت في ذلك خيانات
مشهورة لاداعي لذكرها ، ولكن الشيء المحزن حقاً أن
غوردون الانجليزى أخلص النية إخلاصاً صادقاً على
تنظيم أمور السودان ، بيد أن الاستعمار الانجليزى أيضاً !
أنى عليه هذا الإخلاص وقدمه على مذبحه قرباناً تهافت
على جثمانه سيوف الدراويش !

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير ص ٢٢٦ جزء ثالث

فتح السودان واتفاقية ١٨٩٩

تم إخلاء السودان كما رأينا نزولا على إرادة الانجليز
بما اضطر الوزارة الشريفة إلى أن تستقيل إذ « تطلب
حكومة جلالة ملكة إنجلترا أن تترك السودان ، وليس
من حقنا أن نسلم بتركة ، لأن هذه البلاد التي هي ملك
الباب العالي قد سلمت لنا لنحافظ عليها » (١)

تم جلاء المصريين عن السودان بجلاء أمين باشا في
١٠ أبريل ١٨٨٩ عن آخر بقعة في تلك البلاد ، وطوى
العلم المصرى الذى مضى يرفرف على ربوع القطر الشقيق
أكثر من نصف قرن ، وأخذت إنجلترا تنظم أمورها في
إفريقيا لتكوين الإمبراطورية البريطانية التي كان يحلم
بها غلادستون ، فبسطت حمايتها على أوغنده وعقدت مع
ألمانيا اتفاق ١٨٩٠ اعترفت فيه الأخيرة بنفوذ إنجلترا في
أعالى النيل ، وعقدت مع حكومة الكونغو البلجيكية اتفاقا

(١) من كتاب استقالة شريف باشا

يسمح بمرور سكة حديد الكاب في أرضها مقابل رضا
الحكومة الانجليزية بمد نفوذ حكومة الكونغو على مجرى
النيل غرباً حتى فاشودة ، وأثار هذا الاتفاق غضب
الفرنسيين فأعلن وزير خارجيتهم المسيو هانوتو بأن «هذا
الاتفاق باطل لأنه اتفاق على ملك لا تملكه إنجلترا وهو
ملك السلطان الذي ضمنت صيافته معاهدات دولية والقائم
بأمره خديوى مصر بمعاهدات تقضى بولايته» ثم اتفقت
فرنسا مع بلجيكا على أن تحل محلها في تلك الجهة إلى أن
«يتمكن خديوى مصر من استعادتها فتعيدها اليه كما هي»
ولكن السير إدوار غراى خطب مطالباً بحق مصر محتجاً
بأن الإنجليز قوامون على مصالحها !

وهنا ظهرت حملة مرشان المشهورة بأزمة فاشودة ،
فقد وجد الفرنسيون أفريقيا أرضاً بكرأ مشاعاً للسابق
المواتى لذلك بادرت جيوشهم بالانتقال إلى أعالي النيل
حتى وصلوا إلى منطقة فاشودة وهى فى الأصل جزء من
أملاك الخديوى فى السودان ، وقد أحس الإنجليز أن
فرنسا تطمع فى السودان كما تطمع هى فوجدت الوقت
ملائماً لفتحته من جديد ، وخاصة بعد أن دخل مارشان

الحدود السودانية فألفت حملة من المصريين قودت عليها
كتشنر ، وأخذ هذا يغز السير في السودان شرقاً وغرباً
وجنوباً حتى وصل إلى فاشودة ورفع عليها العلم المصري ،
وكادت تقع الحرب بين فرنسا وانجلترا لأن الانجليز
« لا يستطيعون التسليم للفرنسيين بأعلى النيل لأن
النيل هو مصر ومصر هي النيل » كما جاء على لسان السير
إدوارد غراي ؟ ! وانتهى الأمر بانسحاب حملة مرشان
من فاشوده .

زحف الجيش المصري واحتل مديرية دنقلة ، ثم
استأنف الزحف ودخلت الجنود المصرية أبو حمد ثم
استولوا على بربر حتى تم فتح السودان بضرب أم درمان
وهدم قبة المهدي فيها ، وحاول الدراويش الهجوم على
الجيش المصري في فجر يوم من الأيام فحصدتهم المدافع
حصداً أتى عليهم جميعاً .

تحملت الخزانة المصرية ملايين عدة في سبيل فتح
السودان كما لقي الجنود المصريون عناء شديداً وأهوالاً
جلت عن الوصف ، ويجدر بنا أن ننقل هنا شيئاً من

مذكرات المرحوم لبيب الشاهد باشا (١) جاء فيها تصوير
بديع للمجهودات التي بذلها المصريون في هذا الفتح ، قال
يرحمه الله :

« كان تحرك الجنود المصرية من وقت أن ابتدأت
التجريدة في مارس سنة ١٨٩٦ من بلدة حلغا بالسير
على الأقدام مصريين وسودانيين على السواء وكانت
العساكر السودانية وبعض الأورط الأخرى المصرية
تتقدم إلى الأمام وتحتل البلاد على مسافات متقاربة من
٣٠ إلى ٥٠ ميلا وتعسكر في النقط الجديدة وهناك تقيم
المخافر وتجري الاستكشافات العسكرية واستطلاع
أحوالها ليصدوا الغارات والتعدى على القوات التي
خلفهم . وخلف تلك القوة السالفة الذكر كانت تعمل
الجنود المصرية وهي الأورط ٥ جي أورطة و ٦ جي
أورطة و ٧ جي أورطة و ٨ جي أورطة وتشتغل في مد

(١) المرحوم محمد لبيب الشاهد باشا من الضباط الذين فتحوا السودان
وله فيه تاريخ مجيد اذ بقي هناك حتى طرد الجيش المصرى سنة ١٩٢٤ ؛
وعين في مصر مديراً لمصلحة الاشغال العسكرية وهو أول ضابط مصرى ولى
هذا المنصب ، وأحيل على المعاش ١٩٣٠ ثم أنعم عليه برتبة اللواء الشرفية تقديراً
لتاريخه في السودان .

السكة الحديد . وهذه الأورط الأربع كانت بقيادة ضباط مصريين والجميع كانوا تحت قيادة القائم مقام ابراهيم فتحى بك (المرحوم الفريق فتحى باشا) . ويحسن بنا أن نذكر أنه ما كان يوجد بالجيش المصرى الذى كان به ١٨ أورطة إلا هذه الأورط التى يقودها ضابط مصرى وما كان يشتغل بأشق عمل فى التجريدات وهو مد السكك الحديدية إلا هذه الأورط الأربع .

وقد استمر السير على هذا المنوال ، وكلما انتهى مد قسم من السكك الحديدية تتقدم الأورط الأمامية وتحتل موقعاً جديداً فى الأمام وخلفهم الأورط المصرية تمد الخط حتى تصل إلى النقطة الأمامية وهكذا . وأول موقعة حربية مع الدراويش كانت فى بلدة فرکه بين حلفا ودنقله . والثانية فى بلدة الحفير . والثالثة فى دنقله .

وقبل موقعة دنقله أحضر ألى انكليزى بالسكة الحديد ونقل منها بوابورات البحر . والمسافة الممتدة من رأس السكة الحديد إلى نقطة معسكر الجيش الأمامى تبعد ٣٠ كيلو متراً من دنقله وكان قد تم استعداد الجيش للهجوم على دنقله فاشترك هذا الألى معهم بسير هذه

الثلاثين كيلو متراً . ونظراً لصعوبة التحرك والسير
وشدة الحرارة تخلف معظمهم في الطريق مسافة الثلاثين
كيلو متراً حتى لم يصل إلى دنقله واشترك في موقعها
أكثر من ٢٠٠ جندي من الألاي الألف . وبعد إتمام
فتح دنقله عادت الجنود الانكليزية إلى حلفا ومنها
للقاهرة . واستمر التقدم بعد ذلك بالطريقة السالفة
الذكر حتى أبي حمد . وهناك جرت موقعة أبي حمد
ولم يشترك فيها أحد من الجنود الانكليزية . وظل الجيش
مرابطاً في أبي حمد حتى تم وصول السكة الحديد إليها
مخرقة صحراء حلفا وأبي حمد من طريق آخر خلاف
الطريق الأصلي إذ أن الطريق الأول يوصل إلى كريمه
وهي بلد بحري دنقله بنحو ٦٠ ميلاً وعندها وقف الخط .
وفائدة هذا الخط تنحصر في فتح مديرية دنقله ولعمرانها
فيما بعد .

أما الخط الآخر الذي يقوم من حلفا فهو يخرق
الصحراء إلى أبي حمد مباشرة . واستمر العمل في السكة
الحديد حتى وصلت عطره . وهناك استعد الجيش لعمل
موقعة كبرى إذ كان بالعطبرة قوات كبرى للدروايش

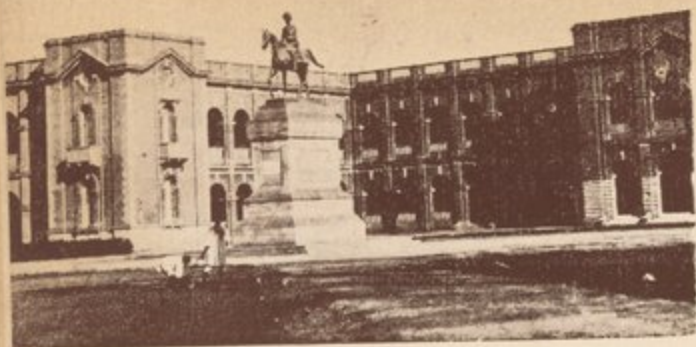
تحت قيادة ود محمود من أشهر قوادهم ولقد أتى بالاي
من الجيش الانكليزي بطريق السكة الحديد ومنها نقل
بوابورات البحر بالقسم الباقي من المسافة ، وكان الجيش
المصرى يتجمع قبل عطبرة بمسافة ثلاثين ميلا . وفي
ثاني يوم ابتداء الزحف على عطبره أى على مسافة ٢٠ ميلا
ووصل الألاى الانكليزي واشترك في الموقعة
السالفة الذكر .

وهكذا استمر الحال في العمل بالسكة بالحديد
والتقدم بالطريقة السابقة حتى وصل الجيش إلى شندى
وتجمع هناك للزحف على الخرطوم ؛ ولكن السكة
الحديد كان تقدمها بطيئاً جداً من العطبرة لصعوبة الطريق
وعدم ملائمة الطقس وكثرة الأمطار التي كانت تجرف
الجسور ، فكان من الضروري انشاء كوبرى على بحر
عطبره لتمر عليه السكة فأوقف العمل تقريبا بالسكة الحديد
واستمر الجيش يتقدم ببطء من شندى حتى نقطة
السلوكه ، وهى سلسلة جبال تقع على شلال سلوكه وعلى
مسافة ٤٠ ميلا تقريبا من كررى . وكررى هذه هى
ضاحية من ضواحي أم درمان .

وفي ثاني يوم زحف الجيش من السبلوكه وعلى
مسيرة يوم وليلة فقط من كررى وصلت الواورات
البحرية تحمل الألبين اثنين من العساكر الانكليز
اشتركوا في الموقعة الفاصلة في كررى التي قضت على
الدرأويش وبها تم استرجاع السودان « (١) »
ثم قال في مذكرات أخرى

« بعد هذا جاء دور تعمير السودان ، وهنا أذكر
بفخر أن الأيدي المصرية أيضاً هي التي عمرته وحدها
دون سواها ، فالسودانيون كانوا لا يعرفون من
الصناعات شيئاً وعليه أخذوا في مصر يجندون مئات
من الصناع ويعثونهم إلينا في السودان بمعدات عملهم
وآلاتهم ، وكنت إذ ذاك في مصلحة الأشغال العسكرية
فابتدأنا التعمير في الخرطوم ببناء سراي الحاكم العام التي
ما زالت موجودة ويسكنها الآن حاكم السودان العام ،
ثم أعقبناها ببناء دواوين الحكومة وثكنات الجنود

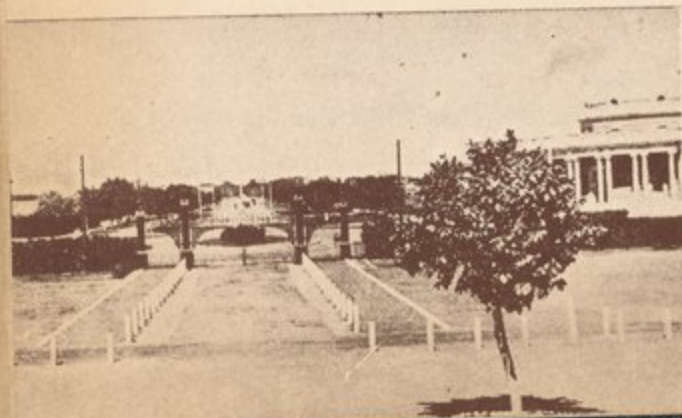
(١) هذه المذكرات مأخوذة من كتاب تضمنها هي ومذكرات المرحوم
الأمير الأي محمد رفعت بك طبع على نفقة حضرة صاحب السمو الأمير
عمر طوسون



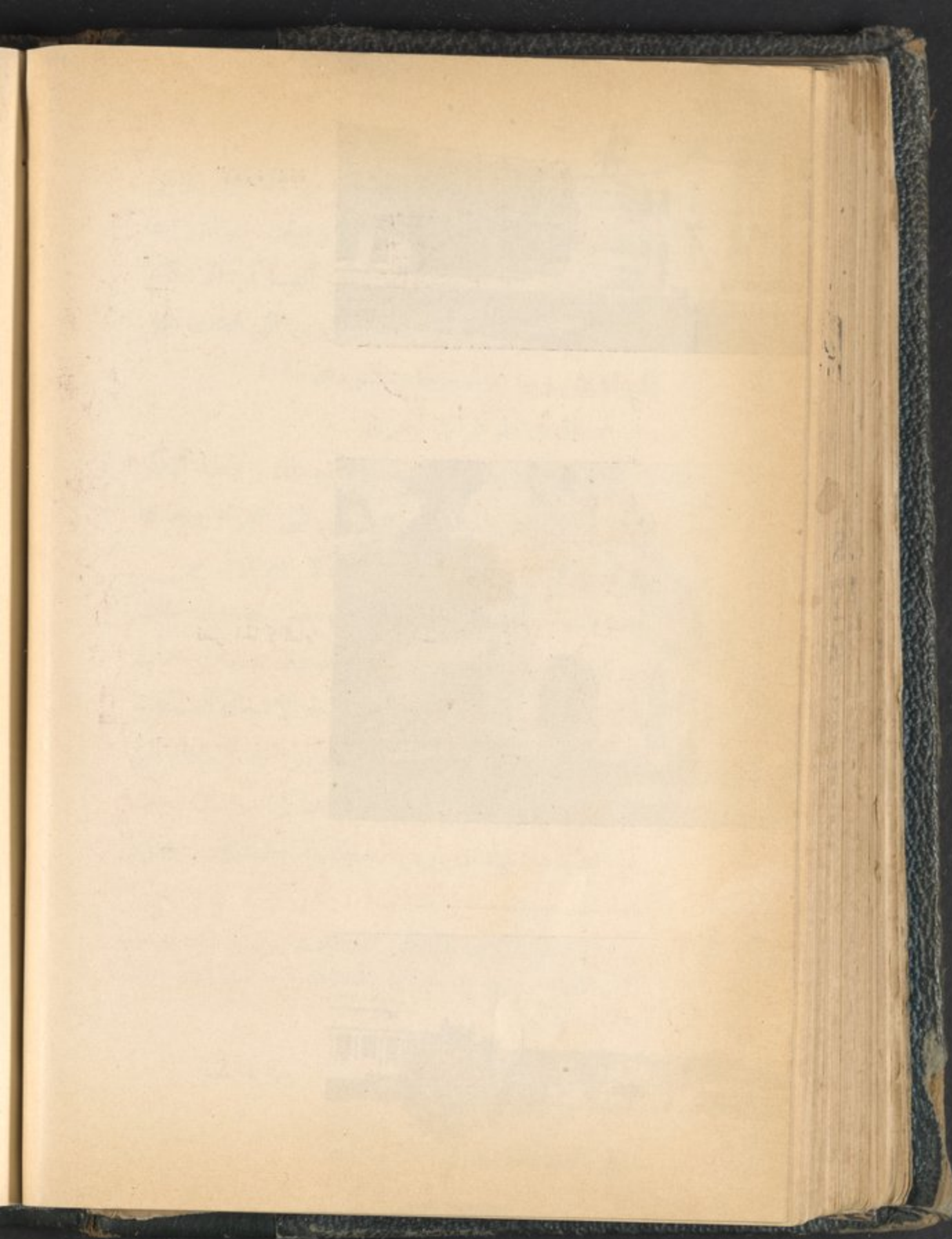
الادارة المالية



قصر الحاكم العام



محطة الخرطوم



ومنازل الموظفين ، وفي نفس الوقت كنا نبعث ببعض
الصناع إلى البلاد المجاورة لتعميرها أيضاً « ا. هـ

لعلك اقتنعت بعد حديث الشاهد باشا ، بأن المصريين
هم وخدمهم الذين فتحوا السودان ، وقد أكد أن اليد الأجنبية
لم يكن لها دخل في استرجاعه وتعميره ، وهو يقصد من
غير شك اليد الإنجليزية؛ ومع هذا فقد رُفِعَ على الخرطوم
العلمان الإنجليزي والمصري ووقع بطرس غالى باشا باسم
مصر واللورد كرومر باسم إنجلترا إتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩
وقد جاء في بعض موادها مواد يحسن نشرها والتعليق عليها.

« حيث أن بعض أقاليم السودان التي خرجت عن
طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل
الحرية والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة
الإنجليز والجناب العالي الخديوي

» وحيث قد أصبح من الضروري وضع نظام
مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتوحة المذكورة وسن
القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجانب العظيم
من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال
إلى الآن وما تستلزمه حالة كل جهة من الحاجات المتنوعة

« وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة
جلالة الملكة المرتبة على مالها من حق الفتح وذلك
بالاشتراك في وضع النظام الإدارى والقانون الآنف
ذكره وفى إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل
» وحيث أنه تراءى من جملة وجوه أصوية إلحاق
وادی حلفا وسوا كن إدارياً بالأقاليم المفتحة المجاورة لها
» فلذلك قد صار الاتفاق والأقرار فيما بين الموقعين
على هذا بما لهما من التفويض اللازم لهذا الشأن
على ما يأتى :

« الأول — تطلق لفظة السودان على جميع الأراضى
التي لم تحتلها الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٣ والأراضى
التي كانت بأدارة الحكومة المصرية قبل الثورة الأخيرة
وفقدت منها مؤقتاً ثم فتحتها الآن حكومة جلالة الملكة
والحكومة المصرية بالاتحاد والأراضى التي قد تفتحها
بالاتحاد من الآن فصاعداً .

« الهادة الثالثة — تفوض الرئاسة العليا العسكرية
والمدينة فى السودان إلى موظف واحد يلقب حاكم عموم
السودان ، ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب

حكومة جلالة الملكة ، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر
عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية .

«المادة الخامسة—لا يسرى على السودان أو على جزء منه
شئ ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية
المصرية التى تصدر من الآن فصاعداً إلا ما يصدر بأجرائه
منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السابق بيانها .

«المادة العاشرة — لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء
قناصل أو مأمورى قنصليات بالسودان ، ولا يصرح لهم
بالإقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية .

رسمت هذه الاتفاقية فى اثنى عشر بنداً اخترت لك
منها هذه البنود الأربعة لأبين لك أوجه الخطر فيها ؛
فهذه الاتفاقية من أساسها باطلة قانوناً لأن مصر نفسها
وهى أحد الطرفين المتعاقدين لم تكن حرة فى الارتباط
بأى تعاقد من هذا النوع إذ لا بد من الرجوع إلى تركيا
فى مثل هذه الاتفاقيات حسب المعاهدات الدولية التى
اعتبرت مصر والسودان من أملاك السلطان فى نظر
القانون ، كما أن إنجلترا مرتبطة بمواثيق مع الدول تحول
دون احتلالها لمصر أو الاشتراك معها فى حكم السودان ،

وأما الاتفاقية من حيث هي تعاقد بين دولتين على إدارة
شعب ما فقد جعلت السيادة للإنجليز دون المصريين ،
وفرضت على مصر تكاليف أبهظتها بينما أعطت إنجلترا
حقوقاً لا تعادل كفاحها في شركة الفتح المزعوم ، فإن
الإنجليز يعلمون أن فتح السودان مسألة تهمهم من ناحية
إنشاء الإمبراطورية الأفريقية ، لا من ناحية الاستغلال ،
فالسودان في ذلك الوقت لم يكن مغرباً إلى هذا الحد ،
لذلك عمدوا إلى مصر في إعادة فتحه ، ولم يقدموا من
جنودهم إلا النزر اليسير كما أنهم لم يدفعوا إلا بضعة
آلاف من الجنيهات لا تقدم ولا تؤخر في تكاليف الفتح
الجديد بينما دفعت مصر الملايين ؛ وقد أخذوا في ذلك
برأى كرومر (١) حين قدم تقريره بأن « السودان هوة
تبتلع الملايين كما يذوب الثلج في حر الشمس فهو سبب
وهن المالية المصرية وضعفها ، وقد أنفقت فيه إنجلترا
مبالغ طائلة أملت استعادتها عند تصفية الحساب ففي
٤ أغسطس ١٨٨٤ قرر مجلس النواب فتح اعتماد بمبلغ
٣٠٠ ألف جنيه لحملة ولسلي لينقذ غوردون فوصل هذا

(١) السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية لداود بركات ص ٥٥

الاعتماد الضئيل إلى ١١ مليون جنيه ، وفي سنة ١٨٩٦ وعدت الوزارة مجلس النواب بأنها لا ترتكب مثل هذه الهفوة مرة أخرى ، فأذا ضمت السودان إلى أملاكها فأنها تضاعف تلك الهفوة !

ترى إذن من هذا التقرير السرى الذى رفعه كرومر الى حكومته أن انفراد إنجلترا بفتح السودان وحكمه أمر متعذر لا تستطيعه ولا تضاعف من أجله الهفوة ! فهى لذلك عمدت الى الحكم الشئى ليكون لها الغنم وعلى مصر الغرم ، فحصر أنفقت على حملة دنقلة وحدها ثمانية ملايين من الجنيهات حتى اضطرت الحكومة المصرية لتغطية عجز المالية المصرية الى أن تبيع ما استطاعت يبعه بأمر الإنجليز ، فباعت البواخر الخديوية والحياض ، وجعلت المالية المصرية فى كل نواحيها فى خدمة نفقات السودان ، ثم باعت التفاتيش والأراضى حتى صدقت الصحف المصرية حين زعمت أن مصر فى المزداد !!

وقد كان هم جماعة من الإنجليز فى ذلك الوقت أن يذيعوا فى الناس أخباراً تؤكد كراهية السودانيين لحكم المصريين ، وترحيب مواطنى السودان بالحكم الإنجليزى حتى إن بعض غلاة الاستعماريين فيهم جروا على الدعوة

بحكم السودان منفردين ، وألحوا في ذلك إلحاحاً لم ينصت
إليه أحد من الحكومة البريطانية العارفة بيوطن الأمور
في السودان ، زعموا أن السودانيين يرحبون بالحكم
الانجليزي لأنه محا النخاسة وحافظ على العبيد من البيع
والشراء ، وإذا كان حقاً أن العبيد قد أَرْضاهم منع الرق
 واحتفاظهم بأوطانهم وأسرانهم فأنهم لا يقبلون مطلقاً
أن يقوم على حكمهم رجل أبيض لا يمت إليهم بصلة
ولادين ، كما أن إعفاء السودان من تجارة الرقيق أحفظ
جماعة التجار الذين كان رزقهم الوحيد من تجارة العبيد ،
كما أن السودانيين المتعلمين الذين على شيء من الدراية
بالحياة السياسية والاجتماعية عند الشعوب كانوا —
ولا يزالون — من أشد الناس كراهية لوجود الانجليز في
السودان ، لأنهم يقدرّون تماماً أن مصر والسودان جزء
لا يتجزأ في الحس والشعور ، يعلمون أن البلدين قطر
واحد منذ عرف الانسان التاريخ الأول ، فهم لذلك عكس
ما يزعم الانجليز يحبون مصر ويرونها الأم الرؤوم .
يعلم الانجليز هذا كله ؛ ولكن بعضهم يأبى الاعتراف
بالحق ولو ان رجالهم الرسميين يؤمنون - ولو في أنفسهم -

بأن الحكم المصرى فى السودان أروح لنفوس السودانيين
من أى حكم سواه ، فترى مثلاً أن ونجت باشا فهم هذه
الحقيقة تمام الفهم وأقرها فى منشوره الذى أذاعه على
السودانيين لما ولى أمرهم كحاكم عام للسودان بدأه
باسم الخديوى و انتهى به الى إرادة الخديوى أيضاً « فان
سمو الأمير خديوى مصر عباس باشا حلى الثانى حرسه
الله قد اختارنى لأن أكون سرداراً لجيشه و حاكماً عاماً
للاقطار السودانية بعد اتفاهه مع دولة بريطانيا العظمى
على ذلك » ثم قال « والله المسئول أن يكون لى عوناً على
تنفيذ إرادة سمو الخديوى المعظم »

وهذا كلام رجل لبق و سياسى ماهر ، لأن مخاطبة
الشعب السودانى و الازدلاف اليه عن طريق الخديوى
المسلم أمر مستساغ عند السودانيين المسلمين الذين يربطهم
بمصر العرف و الدين .

المسألة السودانية

إن عنوان هذا الفصل أقبح عنوان في هذا الكتاب لأن إظهار السودان منفرداً عن مصر قد خلق في عالم الوجود مسألة شائكة لا يستسيغها الواقع الذي يحول دون تجزئة مصر والسودان ويفرض بقاءهما وحدة لا نلنس فيها استقلال الجنوب عن الشمال ، بيد أن اتفاقية يناير ١٨٩٩ قد جعلت السودان طرفاً آخر في حياة النيل ، ولو أن المصريين جميعاً لم يقرروا قط هذه الشركة وليس في وسعهم أن يقرروها مهما امتدت بهم السنون .

وليس هنا شك في أن الانجليز وحدهم تمتعوا بخير السودان وبره ، ونالوا في حكومته المناصب الرئيسية ، فالحاكم العام (١) والسكرتير المالي والسكرتير القضائي والسكرتير الملكي والمديرون وغيرهم من كبار الموظفين

(١) معنى هذه الوظائف أن الحاكم العام يمثل للملك والسكرتير المالي وزير المالية والسكرتير القضائي وزير الحقانية والسكرتير الملكي وزير الداخلية

إنجليز ، أما المصريون فقد خرجوا من الشركة بطبقة من
الكتبة وبعض المأمورين وقليل جداً من رجال القضاء
وقلة صغيرة من المدرسين على رأسهم جميعاً قاضى قضاة
السودان ، ولولا الأسلام لكان هذا المنصب للإنجليز
من غير جدال !

فى مقابل هذا أدت مصر كل ما يؤديه الشقيق لشقيقه
من معونة ، فكانت ميزانيتها تتحمل أكبر القسط فى نشر
لواء الأمن والتمدن فى ربوع الجنوب ، وتحملت غير هذا
راوتب الإنجليز والمصريين على السواء من مدينين
وعسكريين ، ومع هذا كله فقد انفرد الحاكم العام بالسلطة
فاختار موظفيه ومعاونيه من الإنجليز وحدهم ، وبخل على
المصريين بمنصب واحد ذى اعتبار ، وفى ١٩١٠ اجتهدوا
أن يتخلصوا من البقية الباقية من شروط الاتفاقية فألفوا
لذلك مجلساً عاماً سموه مجلس شورى يساعد الحاكم العام
فى تصريف مرافق الحياة فى السودان وحرموا المصريين
الاشتراك فيه ، وفى تأليف هذا المجلس وضعوا خططهم
الجريئة لفصل السودان عن مصر .

ثم أقبلت الثورة المصرية في ١٩١٩ واشتد أوارها
ولم يستطع الانجليز كبتها في مصر بينما اجتهدوا فنجحوا
في إبعاد السودان عنها ، وكان أسلوبهم في تحقيق سياستهم
مصادرة الصحف التي تصدر في مصر وترسل الى السودان ،
وحجز الصحف الأجنبية التي تفيض بالحديث عن الثورة
المصرية ، وبذلك انقطعت أخبار المجاهدين في مصر عن
إخوانهم السودانيين ، ولم يكتفوا بهذا بل ألغوا أجازات
الموظفين المصريين حتى لا تتاح لهم فرصة يتعرفون بها
حوادث مصر ويعودون منها ناقلين أخبارها وقاصين
حوادثها مما قد يترتب عليه قيام الثورة في السودان .

ومن العجيب أن جورج الخامس ألف وفداً من
بعض السودانيين الموالين للانجليز لمقابلة جورج الخامس
وإعلان طاعة أهل السودان وولائهم له !! ولم يكن هذا
الوفد في الحق ممثلاً للسودان ولا عنواناً له لأنه تكون
من صنائعهم والمؤمنين بهم وهؤلاء لا يعتد بها ولا تمثل
روح البلاد في شيء ، ومع أن هذا الوفد قد ولد في أحضان
الانجليز فأنهم حرموه البقاء في القاهرة يوماً واحداً ،

وحجروا عليه في رحلته حتى أدى رسالته بين يدي ملك
انجلترا وأعلن رجاله (١) « حسن تقديرهم للعمل الذي
قامت به بريطانيا العظمى لأحياء بلادهم وتنصلهم من
الحوادث التي جرت في مصر ، وقالوا إن همهم الوحيد
هو أن يبقوا في الامبراطورية ولا يفصلوا عنها »

(١) تصريح اللورد كرزون في مجلس اللوردات في شهر ديسمبر ١٩١٩

المفاوض المصري والسودان

كان المفاوض المصري وطنياً في جميع مراحل المفاوضات السابقة التي تلت الثورة المصرية ١٩١٩، وأول المفاوضين الكرام المغفور له الزعيم الأكبر سعد زغلول فهو أول مواطن مصري جعل استقلال مصر والسودان نصب عينيه في سياسته ومفاوضاته ، فمنذ تزعمه للحركة الوطنية ونحن نراه في منفاه وفي زعامته للثورة وفي رياسته للحكومة عاملاً على إرجاع الحالة إلى ما كانت عليه قبل اتفاقية ١٨٩٩ ، فذكره الوفد (١) لانجلترا والدول حين كان في باريس نصت على أنه « إذا كان المصريون يطلبون إرجاع السودان اليهم فليسوا مدفوعين لذلك بحب التوسع والاستعمار وإنما هم يطلبونه باسم الحق واحتفاظاً بكيانهم الوطني . لقد كان السودان من الأزمنة الغابرة جزءاً متما لمصر .

(١) هو الوفد الأول الذي كان يتكون من سعد زغلول ومصطفى النحاس باشا ومحمد محمود باشا ولطفى السيد باشا والمكباتى بك وعبد العزيز فهمى باشا واسماعيل صدقي باشا وغيرهم من السياسيين المصريين .

وإذا كان قد فصل عنها في وقت من الأوقات فإن مصر وهى مستقلة استقلالاً إدارياً جعلت في مقدمة واجباتها وأعمالها إعادته الى حظيرة الوطن الأكبر .

على أن المسألة ليست مسألة قانون أو مسألة تاريخية فقط بل إن مصالح مصر والسودان مرتبطة بحكم الطبيعة ارتباطاً يجعل كلا من البلدين متما للآخر وكلا منهما في حاجة الى الثانى ليستطيع الحياة والتقدم والرقى ، فإذا تسلمت دولة أجنبية على السودان كانت مصر التى لا تعيش إلا من النيل عرضة لأفدح الأخطار .

ولقد أشار المستشار الانجليزى لدى الحكومة المصرية فى تقريره الصادر يوم ١٤ ديسمبر ١٩١٤ بقوله (إن الأرض التى يروىها النيل من جبال الحبشة والبحيرات الكبرى إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط مهما كان الاسم الذى يطلق عليها هى كل لا يقبل التجزئة . ونظراً لتقدم فن الهندسة ذلك التقدم الذى بلغ الأوج فإن الدولة التى تبسط حكمها على منطقة النيل تملك مراقبة المياه فى مصر . وعلى ذلك فالسودان ضرورى لمصر ؛ بل هو الأزم لها من مدينة الإسكندرية)

على أن سكان السودان من جهة أخرى ينتفعون كثيراً من
اتصالهم بالمدينة المصرية التي لا يوافقهم سواها ، فهم
يعتبرون مصر بمثابة أختهم الكبرى التي يتكلمون لغتها
ويرتاحون لنظمها وأخلاقها .

وهذا الميل المتبادل وذلك الاتحاد في الأخلاق والأفكار
هما نتيجة طبيعية لذلك الحادث التاريخي، وهو أن العرب الذين
جاءوا الى مصر والعرب الذين توزعوا وانتشروا في
السودان يرجعون لأصل واحد، ولا يخفى أن سلالة هؤلاء
هم اليوم الأعظم شأنًا والأكثر استنارة بين سكان السودان.
وإننا بطلبنا إرجاع السودان الى مصر نريد أن نجعله
شريكا لنا « له مالنا وعليه ما علينا »

ثم انتقلت المذكرة الى الحقائق المرة في السودان
فقالت « بينما انجلترا تسود وتحكم بمفردها تلك الأقطار
الواسعة فان مصر هي التي تدفع من أموالها ما يسد العجز
الفاحش في ميزانيتها فضلا عن الانفاق على الأعمال
الكبرى التي تلزم لاصلاح الأراضى ولقد دفعت
... ر ٥٠٠ ر ٣ جنيها لمد الخطوط الحديدية ومليون
جنيه لميناء بور سودان .

ومن عجائب الأمور أن مصر بأنشائها ميناء بورسودان
من أموالها الخاصة أوجدت لتجارة السودان
مخرجاً جديداً من شأنه أن يقلل مقدار المنفعة التي كانت
تعود على مصر من تجارتها مع السودان !

وزيادة على ذلك فإن الجيش المصرى المعسكر جله
فى السودان هو الذى يستخدم لأخضاع الأراضى الخارجة
عن الطاعة ولفتح بقاع جديدة لمصلحة النظام المشترك ،
ومصر وحدها هى التى تتحمل بطبيعة الحال النفقات
الجسيمة اللازمة لذلك .

وليت شعرى ما هى الفوائد التى نجنىها من وراء تلك
الضحايا ؟ إذا تساءلنا فلا من يجيب .

ليس هذا فقط بل أن الموظفين المصريين يحتفون
شيئاً فشيئاً ليفسحوا المكان للموظفين الانجليز فى المناصب
الكبرى على الخصوص ، وليس بعيداً ذلك اليوم الذى
يخلو فيه السودان من أى موظف مصرى ماعدا الحاميات
العسكرية التى تدفع مصر نفقاتها .

فلهذه الأسباب كلها نلح فى المطالبة بأرجاع السودان

إلى حظيرة الوطن الأَكبر (مصر) وفاقا للحق
والعدل» ١٠ هـ

ولسنا هنا في حاجة الى تقرير مواقف سعد في المسألة
السودانية ، وتكفي زعامته وحدها لتقرير موقفه المشرف
ووطنيته الخالصة ، أما سعد في رئاسة الحكومة فقد كان
مخلصاً أشد الاخلاص في عمله على وحدة النيل ، كان
زعماً أكثر مما كان رئيساً للحكومة ، لقي العنت من خصومه
السياسيين الذين أخرجوه في البرلمان المصري ، وأمعن
الخصوم الانجليز في إحراجه بتصريحات رجاهم المسؤولين
في إنجلترا عن تمسكهم بالسودان كأنه جزء من امبراطوريتهم ،
كما ضايقه إنجليزو السودان الذين اضطهدوا أنصاره من
السودانيين .

فلما صرح بارمور باسم حكومته « بأن الحكومة
البريطانية لن تترك السودان بأي حال كان » أجاب سعد
إجابة الزعيم الذي لا يتردد ، ويرى الحق في جانبه على هذا
التصريح بتصريح أقوى وأصدق من تصريح اللورد بارمور
في مجلسي البرلمان المصري « إنتى بالنيابة عن الشعب المصري
جميعه ، وفي حضر تكم الموقرة ، أصرح بأن الأمة المصرية

لن تتنازل عن السودان ما حيت وما عاشت . . . إن حقوق
الأمم لا تضيع بمجرد أن يقول الغاصب إنى أريد أن
أتمتع بها دون أصحابها . نعم أيها السادة لا يمكننا مطلقاً
أن نتنازل عن السودان ، لا لأنه مستعمرة ، بل لأنه
جزء من كيانتنا ، بل لأنه منبع حياتنا ، بل لأنه لا يمكن
لمصر أن تعيش بدون السودان أصلاً . وقال في ١٣ يناير ١٩١٩
في خطبة له « مصر والسودان كل لا يقبل التجزئة . . .
السودان ومصر أخوان يشربان الماء من نهر واحد .
ويتكلمان لغة واحدة ويدينان بدين واحد . وإنه لمن
المستحيل على مصر أن تحيا بغير السودان »

أما موقفه في المفاوضات ١٩٢٤ فمعروف مشهور ،
وقد قضى سعد وهو يؤمن إيماناً خالصاً بأن مصر
والسودان جزء واحد يتم بعضه بعضاً .

أما المغفور له عدلى يكن باشا فأن اللورد كرزون
قدم له في نوفمبر ١٩٢١ مذكرة بمشروع معاهدة بين مصر
وانجلترا كانت المادة السابعة عشر خاصة بالسودان وهي
في الواقع لا تقدم ولا تؤخر ، بل تساعد على تحقيق
الغرض الأنجليزى من اتفاقية ١٨٩٩ فكان رد عدلى يكن

رئيس الوفد الرسمي إذ ذاك « أما مسألة السودان التي
لم يكن قد تناولها البحث فلا بد لنا فيها من توجيه النظر
إلى أن النصوص الخاصة بها لا يمكن التسليم بها من
جانبا فأنا هذه النصوص لا تكفل لمصر التمتع بما لها
على تلك البلاد من حقوق السيادة التي لا نزاع فيها مع
حق السيطرة على مياه النيل »



لا يمكن أن يكون مقتل المرحوم ستاك باشا خالفاً
للحالة المعروفة في سنة ١٩٢٤ ، وكل ما يمكن أن يقال
إن الاعتداء على حاكم السودان العام كان فرصة طيبة
لتحقيق غاية القائمين بالأمر في السودان إذ ذاك ، وكان
هؤلاء يرون — عن عقيدة ومبدأ — أن فصل السودان
عن مصر ضرورة تفرضها مصلحة الإمبراطورية
البريطانية ؛ ومن الحق أن نذكر هنا أن ستاك باشا حاكم
السودان المقتول لم يكن يرى رأى الساسة في الاستقلال
بأمر السودان ، وكثيراً ما كان يقف حائلاً دون تحقيق
هذه الغاية الاستعمارية ولو أنه لم يوفق في أغلب الأحيان
ولكى نصل إلى تصوير الحالة التي نشأت في سنة ١٩٢٤
تصويراً صحيحاً يجب أن نعود إلى ما قبلها من ماض
قريب ، حتى نستطيع أن نبرز النتائج بعد العودة بها إلى
مسبباتها الصحيحة التي لا يرقى إليها الشك لأنها من
الوقائع الظاهرة التي إن خفيت عنا فذلك لأننا لم نعن قط

عناية صادقة بأمر السودان وإن كان أمره يهمننا في أقلام
الصحف وعلى أفواه الخطباء

عند ما عاد المصريون والانجليز إلى السودان عقب
فتحته الثاني جمع كتشنر الضباط والجنود المصريين أمام
أطلال سراي الحاكم العام في الخرطوم ، وبعد هنية
التفت الجند المصريون فإذا العلبان الانجليزى والمصرى
يرتفعان على سارية الأطلال ، فتجهمت وجوههم لأن
السودان مصرى فى صميمه ولا يمكن أن يكون للانجليز
نصيب فيه ، ولم تكن اتفاقية ١٨٩٩ قد أذيعت بعد ،
ولاحظ كتشنر اضطراب الضباط وغضبهم فخطبهم مؤكداً
أن السودان لمصر وحدها وأنه إنما يرفع العلم الانجليزى
على سراي الحاكم العام تحية من الفاتحين لدم غوردون
المسفوك فى هذا المكان . . .

هذه الحالة العارضة وضعت أول حجر للمنافسة بين
الانجليز الغاصبين والمصريين أصحاب الحق المسلوب
فى السودان ، ثم بدأ الانجليز يحاربون الرق فى عنف
وقسوة فأعتقوا الرقيق ، وكان لهذا أثر سيء على الحالة
الالية فى السودان ، كان يجب أن يترك جيل الرق

على حاله ويحرم الرقيق بعد هذا الجليل ، لأن السودان
كان أرضاً مشاعاً بين عيونه ، وكان هؤلاء العيون
يشتركون الرقيق للعمل في أرضهم وقد تبلغ أرض الواحد
منهم خمسمائة (جدعة) (١) يقوم على حرثها وزرعها
فئة من الرقيق تتبع صاحب الأرض وتعينه على دفع
الضرائب من محصولها ؛ فإذا ما ألغى الرق ترك العبيد
أرض سيدهم فلم يعد في استطاعته أن يقوم بزراعة الآلاف
من هذه الأفدنة لأن اليد العاملة قليلة أو قل معدومة
مما ترتب عليه إهمال الأراضي الزراعية إهمالاً خطيراً ،
ولا ننسى أن هذه الأراضي تزرع كلها نزل بالأرض
مطر ، فلو أمكن وجود اليد العاملة فقد لا توجد في موسم
الأمطار ، وهي على أية حال معدومة في هذه الأقطار
كان من جراء إلغاء الرقيق إعتاق العبيد وهو عمل
إنساني من غير شك ولكنه غير طبيعي في ذلك الوقت ،
لأن الحكومة أعتقت الرق ثم فرضت ضرائبها على
أصحاب الأراضي الذين أصبحوا في عسر بعد يسر ،
ولا يستطيعون سد أودهم ، فكيف يقومون بدفع

(١) الجدعة خمسة وثلاث من الأفدنة

الضرائب وهى كثيرة متباينة ؟ نتج عن هذا كله إهمال
الأرض المزروعة أولاً مما أعاد معظم أجزاء السودان
صحراء قاحلة ، كما أن أعيان البلاد تدهورت حالتهم
وعزت عليهم حياتهم الأولى فاضطرب الميزان
الاقتصادى وأصبح النقد عزيز المنال .

وكانت خطة الانجليز دائماً بث روح الكراهية
فى نفوس السودانيين نحو إخوانهم المصريين ، فأقاموا
عمالاً من المصريين لجباية الضرائب ، وسلحواهم بالسياف
وآلات العذاب ، وكان المصريون مضطرين إلى تلبية
أوامر رؤسائهم من المديرين الانجليز فأوجد ذلك حالة
من التوتر بين علاقات الأخين الشقيقين .

وألح الانجليز فى تسوية سمعة المصريين عند إخوانهم
السودانيين ، وكان هذا الأمر صعب المنال عند الشبان
المتعلمين أو الذين لا يزالون ينهلون العلم فى مدارس
السودان ، لأن المعلمين المصريين كانوا خير رسل لمصر
هناك ، يدعون لها ، ويعملون ما وسعهم الجهد لرفع
الكلفة بين الشمال والجنوب ، وغرس المبادئ القويمة
فى نفوس الشبان ، مبادئ حب مصر واعتبارها جزءاً

مكملاً للسودان كما أن السودان جزء متمم لمصر . كان يحمل علم هذه المبادئ أساتذة معروفون ، بعضهم قضى وبعضهم لا يزال يعيش في زحمة الحياة بيننا كالمرحوم الشيخ الحضري والشيخ عlish والأستاذ عبد الوهاب النجار .

لم يرَ الانجليز بداً من إخراج هؤلاء الأساتذة الذين كانوا أعظم أثراً من وجود الجيش المصرى فى السودان ، فسعوا حتى وفقوا وكان لهم ما يريدون . وبقي الحال على ذلك نيفاً وعشرين عاماً قامت فى نهايتها الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول ، فعرف السودانيون بهاشم وجدوا زعيم النهضة المصرية يتحدث عن السودان فى خطبه ومفاوضاته وبرلمانه على اعتبار أنه جزء لا يتجزأ من مصر ، وأن لسكانه من الحقوق ما للمصريين تماماً ، ثم تدبر السودانيون الأمر جيداً فأحسوا فى أقوال زغلول ما يفسح أمامهم مجال الحياة . وخاصة المتعلمين فيهم ، فهو يؤملهم بعضوية البرلمان ووظائف الحكومة الكبيرة ، وكيف لا يوقظهم هذا الحديث الحلو المستساغ ؟ إن المصريين يطلبون للسودان

ما يطلبونه لأنفسهم ، يطلبون خفض الضرائب ومحو
الظلم ونشر الحرية ، إنهم يريدون لأخوانهم السودانين
أن يكونوا وزراء مثلهم وأعضاء في برلمانهم ، وموظفين
في مختلف الدرجات ، يريدون لهم العلم والعمل ،
ويرحبون بهم ترحيب الشقيق لشقيقه ، والإنجليز قد
أصدروا منشوراً يقف ترقيات الموظفين من أهل
السودان عند الدرجة السابعة ، ومعنى هذا أن السودانى
مهما بلغ من العلم وأمضى فى الحكومة من سنوات العمر
لا يبلغ مرتبه عشرين جنياً ، والإنجليز وخدمهم هم الذين
يحولون دون وصول السودانين إلى المراتب العليا التى
قد تبلغ الوزارة وعضوية البرلمان ؛ والإنجليز وخدمهم
الذين أبوا على السودانين أن يتمتعوا بالرتب المصرية
فليس فيهم باشا واحد بينما بلغ عدد الباشاوات قبل الفتح
الثانى حوالى العشرين ، والإنجليز وخدمهم الذين يقفون
دون حرية السودانين وتخفيف الضرائب عنهم. والإنجليز
وخدمهم الذين يحتقرون السودانى المسلم فلا يستطيع فرد
منهم أن يبقى على دابته أو يمضى فى قعدته إن مر به

انجليزى مهما كبر مقامه فى عيون مواطنيه ، ومهما
تواضعت مرتبة الثانى بين الانجليز ...!

اضطرب البريطانيون لروح السخط التى بدأت تسرى
فى نفوس أهل السودان ، وهذا التطلع الشديد لسعد زغول
ومبادئ الحرية التى يعلنها المصريون ، فأرسل الحاكم
العام منشوراً سرياً Secret and Strictly Confidential
إلى رؤساء الحكومة من الانجليز يطلب منهم عرائض
ثقة بالحكم الانجليزى ؛ ونشر هذا المنشور السرى
فى الجرائد المصرية ، فجن الانجليز فى السودان وأجروا
تحقيقاً فى الموضوع لم يكن له أثر ما .

ووجد المصريون بعد هذا المنشور أن موقفهم سلبى
يجب أن يقابلوا عرائض الثقة بعرائض ثقة أخرى تعلن
تعلق السودان بمصر وطلب وحدة القطرين . ولم
يستطيعوا بالطبع أن يحصلوا على كثير من العرائض
التي حصل عليها الانجليز ؛ حدث كل هذا وسعد زغول
يفاوض باسم الحكومة المصرية فى مصير مصر والسودان

سنة ١٩٢٤

وأخذت روح السخط على الأنجليز تشدد وتقوى ،
وروح الحب والولاء لمصر تظهر وتبين حتى قبض الله لمصر
ظرفاً يؤكده حب السودانيين لمصر في أسلوب عملي عنيف
كان مأمور أم درمان في ذلك الوقت عبد الخالق
حسن افندي ، وكان رجلاً رضى الخلق ، محبوباً من
المصريين والسودانيين على السواء ، مرض فجأة ثم مات
بعد يومين فخرجت أم درمان بأسرها لتودعه الوداع
الآخر ، واستقبله السيدات السودانيات بالعويل
والنواح كلها مر مشهده بدار إحداهن ، فلما وورى
التراب لم يكن بد من شكر هؤلاء السودانيين الكرام
الذين بلغ عددهم في جنازته عشرات الألوف فوقف
قاضي أم درمان الأستاذ محمد توفيق وهبي (١) وشكر

(١) الأستاذ محمد توفيق وهبي قاضي أم درمان كان رئيساً للنادي
المصري في الخرطوم ، وكان أنشط المصريين في الدعاية لبلاده في تعقل
ورزانة ، وكان محبوباً جداً من مواطنيه مصريين وسودانيين ، وقد أذاع
في الخرطوم نشاطاً عظيماً في حياتها الاجتماعية ، وكان أول من طرد من
السودان قبل مقتل السردار ، وحاولت السلطة الانجليزية أن تسرده الى
الخرطوم لتحكم عليه بالاعدام الا أنه كان قد ترك القطر المصري وعاش
في أوروبا ردهاً من الزمن ثم عاد الى مصر منذ سنوات

السودانيين في كلام اللبق المواتى ، كلام لا يؤاخذ عليه
ولكنه كلام أثار حمية المواطنين السودانيين مما دعاهم
إلى الهتاف باسم مصر ... ثم تطور الهتاف إلى الدعاء
باسم سعد زغلول ... ثم هتفوا بحياة مصر والسودان ،
وسارت هذه الألوف السودانية وحدها تنتقل من
هتاف إلى هتاف حتى هتفت بسقوط إنجلترا والآنجليز ...
وكانت هذه أول مظاهرة في السودان !

إرتبك الآنجليز ارتباكاً لا نظير له فنزل البوليس
في الناس ضرباً وقبض على عدد كبير منهم وسيقوا إلى
المحاكمة ؛ ثم تسامع الناس في أرجاء السودان كله بأنباء
المظاهرة وقسوة الجند بالمتظاهرين فقامت مظاهرات عدة
في الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحرى ، ثم قامت
مشيلاتها في حلفا وكسلا وعطبرة وما إليها ، وفي يوم
وليلة كان السودان شعلة تهتف بحياة المصريين وسقوط
الآنجليز . . .

دعا السكرتير القضائى الأستاذ توفيق وهبى وطلب
إليه أن يقوم بأجازته إلى مصر فوراً ولم تكن قد حلت
أجازته بعد ! وسافر الرجل إلى القاهرة فودعه حشد من

الناس لا عدد له وأرسلت إليه الأورط الانجليزية وجند
البوليس كله ليكونوا في توديعه مع المودعين !!! وحرّم
على الجنود المصرية الخروج من ثكناتها في يوم سفره
حتى لا تقوم حرب في الخرطوم ...

ولم تقف المظاهرات بعد سفره بل بقيت على شدتها
فاضطر الانجليز إلى الاستنجد بجند من الهند فأرسلت
الجنود الهندية لتخمد الثورة في السودان ، وكان هذا
دليلاً ساطعاً على أن السودانيين ساخطون ... ولكن
على الانجليز وحدهم ! وفشلت عرائض الثقة وخاب
طبل المستعمرين !

ووقعت حادثة السردار المشؤومة فثار الانجليز
لا أنفسهم وحققوا خطتهم وطرد الجيش المصرى
من السودان

خاتمة

جرت مفاوضات بين المغفور له ثروت باشا والسر
أوستن شميرلن في سنة ١٩٢٧ بيد أنها لم تثمر ولم ينته
الطرفان إلى حل ، ورفضت مصر بمحمل ماعرض عليها
سواء كان ذلك خاصاً بمصر أو السودان .

ثم جرت مفاوضات أخرى بين حضرة صاحب
الدولة محمد محمود باشا والمستر هندرسن في صيف ١٩٢٩
إنتهت إلى مشروع معاهدة فاوض على أثرها حضرة
صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا المستر هندرسن في
صيف ١٩٣٠ ، وفشلت المفاوضات عند نقطة السودان
حيث وقف المفاوض المصري أشرف موقف عرفه له
تاريخ مصر الحديث .

أما الاتفاقية الحديثة التي انتهوا إليها في هذا العام ١٩٣٦
فهي تحقق النظرية المصرية الى حد بعيد في أمر السودان ،

وقد وفق الجانب المصرى حين احتفظ لنفسه بحق تعديل
هذا الاتفاق فى المستقبل .

وأنت لتلمس فى نصوص الاتفاقية بعض الفوائد
التي إن أحسن تنفيذها حققت آمال القطرين الشقيقين ،
فهجرة المصريين الى السودان ضرورة يملها الواجب الذى
يؤكد أن وحدة النيل رهينة بانتقال جزء كبير من المصريين
إلى ربوع السودان التى هى فى أشد الحاجة الى اليد العاملة .
كما أن إنشاء المدارس على غرار مدارس مصر مسألة
أهم بكثير من وجود الجيش المصرى هناك ، لأن وظيفة
الجيش وإن كانت سامية من غير شك إلا أنها لا تستطيع
أن تغرس محبة مصر فى مواطنى الجنوب بقدر ما يستطيع
هذا المدرس المصرى المخلص النشيط ، ونحن نريد أن ينشأ
الجيل الجديد فى السودان مطبوعا على حب مصر واعتبارها
الأم الرؤوم .

ولا ينبغي أن تتساهل الحكومة المصرية فى اختيار
موظفيها فى السودان ، فهؤلاء الموظفون يحملون رسالة
مصر فى معاملاتهم وطباعهم ويجب أن يكونوا مثال

الموظفين الا كفاء الذين يرون في السودان بلداً لا يفترق
مطلقاً عن مصر بحال، لا أن يعتبره بعضهم منفي ويعتبروا
أهله عبيداً أو كالعبيد .

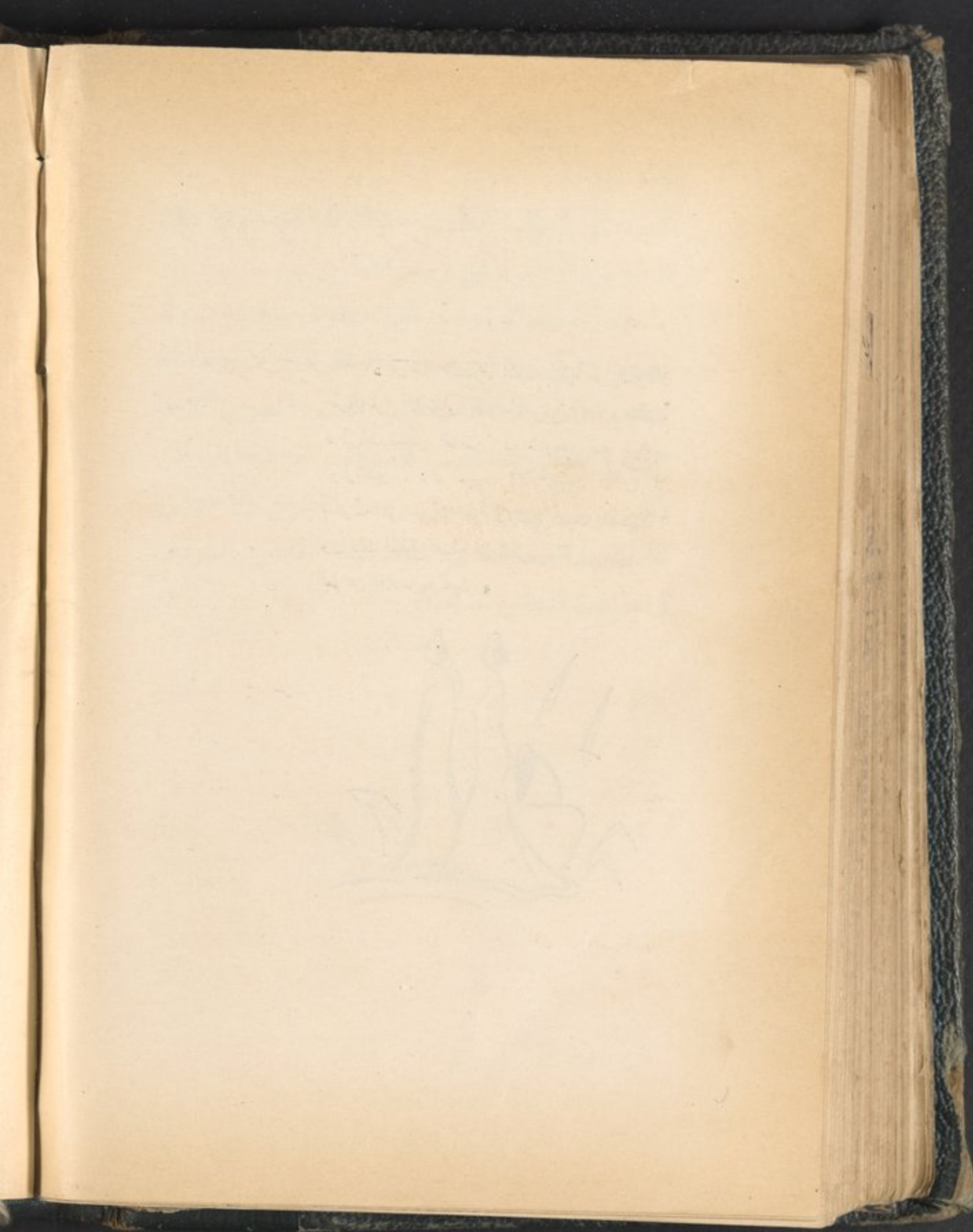
كما أن زيارة الشبان المصريين للسودان واجب محتوم ،
فأن اختلاف الشبيبة المصرية وخاصة المتعلم منها كطلاب
الجامعتين إلى بلاد السودان في رحلاتهم أعظم نفعاً وأدق
عملاً من رحلاتهم الى بلدان أوروبا ، ومن واجب
الحكومة المصرية أن تعنى بالشبيبة السودانية عناية خاصة
فتسهل لأ كبر عدد فيها الالتحاق بالجامعتين المصريتين ،
كما ينبغي أن تنتهز فترة الصيف فتدعو الطلاب السودانين
الى زيارة مصر وقضاء فترة طويلة يلهون فيها بالحضارة
المصرية ، ويرون أختهم في حقيقتها دون أجر أو جزاء
ولعل من أفضل الوسائل لتحقيق الغاية المرجوة
للبلدين أن يرتبط المصري بالأسرة السودانية عن طريق
الزواج ، وهذا إلى كونه طبعى إلا أن تأثيرة في الروابط
بين مصر والسودان أنجع من وجود الجيش بل وجود
المدرسين أيضاً ، ولعل من وسائل تحقيق غايتنا في الجنوب
أن يقوم أغنياؤنا بتشييد الملاجىء والمستشفيات في مدن

السودان ، فإن ذلك يملأ قلوب المواطنين رضى وغبطة
فيرون إلى العطف النظرى حنان الواقع ، وفى ذلك
ما فيه من أثر محمود على وحدة القطرين

إن النتيجة التى وصل إليها حضرة صاحب الدولة
مصطفى النحاس باشا فى معاهدة الزعفران مرضية وصالحة
تتطلب عناية دولته الخاصة ليجنى الشعب المصرى آثارها
الطيبة فى هذا العهد الجديد ، فقد واثت الفرصة للمفاوض
المصرى . ولم يبق لتحقيق وحدة القطرين إلا التماس
الأساليب الصالحة فى تنفيذ البند الخاص بالسودان
فى معاهدة النحاس — إيدن .

« في هذه الفصول المقبلة ستقرأ عن السودان
طرفاً من الأخبار جمعناها من هنا وهناك ،
ذكريات لبعض القاطنين فيه النازحين عنه مرغمين
أو راضين ؛ وقد تخيرت لك أسلوب الأدباء لا
أسلوب المؤرخين ، حتى لا يثقل عليك الحديث ؛
وفي ذلك تسلية محبة الى النفوس التي يرضيها أن
تعلم عن بلادها ما تجهله »





الذكرى الجميلة

كان صاحبنا هزيلا كأنه ملفوظ من قبر ، قصيراً
كأنه لم يخرج من الأرض بعد ! لا يحب في الحياة إلا
أمه ولا يؤثر عليها مالا أو طعاماً فقد خرج بها من الدنيا
وكسبته هي من الحياة بعد جهاد حافل بالخير والشر ،
لا يستيقظ حتى يراها ، ولا يغيب عنها إلا إذا اختلف
إلى المدرسة أو شغل باللعب في فناء الدار ، حتى إذا
أقبل الليل مضى إلى أمه يحدثها وتحديثه ويتدل عليها
دلال الوحيد الذي لا يملأ الحجر غيره .

كان صاحبنا إذن صغير السن هزيلا قصيراً مدللاً ،
لا يحب المدرسة كما يحب أمه ، مشغولاً باللعب وإن
رغب عن الشارع والحارة وما يملؤهما من مرح يعشقه
الأطفال وقد يستهويهم أكثر مما تستهويهم حلوى الدار
وحنان الأم !

وفي يوم اجتمعت الأسرة تتناول الغداء صامتة
كأنها في عزاء فطفلها المدلل في حاجة إلى تغيير الهواء ،

والطبيب ينصح للطفل أن يختلف إلى لبنان أو إلى
السودان إذا استطاع إلى ذلك سبيلا ، وطبيب الأسرة
قد ألم بطرف من حياة الأسرة ، وقد علم أن عضواً
من أعضائها يضطرب في الحياة لا في القاهرة بل
في الخرطوم ، وقد علم الطبيب النيل الكريم أن حياة
الطفل تفرض على عمه أن يرأف بها ويحنو عليها ...
وكان الطفل ما كراً داهية وإن لم يبلغ هذه السن
التي يحسن فيها المكر ويحمل فيها الدهاء ؛ فقد زعم لأمه
أن طائفاً قد ألم به في الليلة الماضية في هيئة شيخ وقور
لعله من القديسين أو الأنبياء ! وألح عليه هذا الطائف
بالرحيل إلى السودان حيث شفاؤه ونعيمه ، وصور له
الحياة هناك هيئة لينة ، رقيقة عذبة ، وصور له أن قلبه
لن يكبر للخير ، وأن صدره لن يتسع للعافية ما لم يغز
السير إلى تلك البلاد ؛ وزعم الصبي الماكر الداهية أن
عالم الطب لم يبدعه الله إلا لينجب هذا الطبيب الماهر
ليذيع في الأسرة هذا الرأي وإن آلمها ، وإن أوجع أمّاً
حنوناً وأفاض من عينيها الدموع ...

وكانت أم الصبي سمحة الطبع ، رضية الخلق ، طيبة القلب تود لابنها الحياة ولو شط به المزار وطالت به الفرقة ، وتود له السعادة مهما تبدل نعيمها بؤساً وفرحها حزناً ، فانصاعت إلى الرأي الذى أذاعه الطبيب بعد لآى وجهد عسيرين ، ولكنه انصاع من يؤمن بالرقى ويثق بالطائف إذا ألم بليل ؟ ...!

ولم يكن هناك طائف ألم بالصبي الماكر بل هو درس قد تلقاه فى الجغرافيا منذ أيام على أستاذ فى المدرسة هو أجهل الناس بالجغرافيا ! زعم الأستاذ أن العقارب تسير فى السودان صفوفاً صفوفاً كأنها جيوش منظمة للغزو والفتح ! وزعم أن الناس فى حياتهم يتبدلون ويتغيرون وفى هذه الانقلابات لون من الفرجة أبدع من ألعاب المسرح والسينما ! كذلك صور للتلاميذ كيف أن السودانى يستطيع مبارزة أسد والتغلب عليه دون أن يستعمل سلاحاً من الأسلحة ! وقال المدرس العالم إنه يعلن على تلاميذه هذه الحقائق لا من الكتب فحسب بل هو يرجع بها فى بحثه وتنقيبه إلى المجلات والصحف وإلى رحلاته الخاصة فى السودان !!

وود الصبي الماكر الداهية لو يحدث أمه بهذا كله ،
ولكنه خاف أحاديث العقارب التي تسير صفوفاً وألوان
المتعة والفرجة في السودان وهذه الأسد التي تغلب دون
سلاح ! فأنها إن سرته فقد تضطرب لها أمه وتحرم السفر
عليه فاخترع الطائف اختراعاً ، ومكث ينتظر اليوم الذي
يغادر فيه القاهرة وينطلق به القطار الى بلاد العقارب
وناسها من كل لون عجيب ! وأخذ يعد الأيام عدداً وكأنها
أعوام في حسابه وهي عند أمه لحظات خاطفات ...

واليوم أصبح الصبي شاباً يافعاً يرجو لو يقابل أستاذ
الأمس العالم في الجغرافيا ! لا لينهره على هذا العبث الذي
ألقاه عليه منذ خمسة عشر عاماً بل ليشكره على هذه
الكذبة الفارغة التي حسبها على السودان ، والتي علمت
الطفل كيف يخلق حديث الطائف اختلاقاً ، والتي حببت
في الطفل بلداً لم يكن يعرفه ، فعرفه لافي العقارب ومبارزة
الأسد بل في هذه الحياة التي لا ينسى فيها أن قلبه قد كبر
حقاً فامتلاً بالخير ، وأن صدره قد عوفي من الأمراض
حقاً فبدأ يضطرب بأنبل العواطف وأصدق الأحاسيس ...

السودانيون في أخلاقهم عامة

لا أريد أن أحدثك عن لون بشرتهم فذلك تحصيل حاصل كما يقول أهل المعرفة وضرب الأمثال ، بيد أن بشرتهم تختلف في لونها عما هو مشاع بيننا بأنهم سود عميقو السواد فإن من بينهم من ترجح بشرته بين السواد والسمرة كأهل الصعيد ، ومنهم الخريون كالمصريين على السواء .

وبين السودانيين قوم طوال القامة عراض المنكبين ، ومنهم معتدلو القوام اختصم فيهم الطول والقصر فأتبع جسمهم مقطوع النظير ، ومن بينهم أقزام في الجنوب الغربي من السودان حيث تتكاثر الأشجار وتزدحم الغابات . وأخلاقهم كلونهم وطولهم ، أبدع الله بعضهم معاندين جفاة الطبع ولكنه وهبهم نفساً طروباً وميلاً إلى الحرية ونقاء في القلب وإنكاراً للذات وهي صفات الجندي

الكريم على نفسه الأمين على رجولته ، وهؤلاء هم دعاة
الفرق السودانية في الجيش المصري ، أما أولئك الذين
يترجحون بين السواد والسمرة ، ويفضلون القوم باعتدال
الجسم فهم أكثر ليناً وأبعد تفكيراً لا يحبون الخمر كما
يحبها السود ، يعرفون الله في دينهم الاسلامي الخفيف ،
ويعبدونه في إيمان صادق لا يتطرق اليه الشك ، يحبون
الزواج المبكر وقد يتزوجون أربعاً حباً في كثرة النسل
ورغبة في تقوية الأسرة بينما السود في الجنوب الغربي
لم يعرف أغلبهم ديناً من الأديان ولا يميلون إلى الزواج
في سن صغيرة وإن كانوا يحبون الزواج الكثير ما استطاعوا
إلى ذلك سيلاً .

وأشبه السود يدخلون في الثياب كما يفعل الحضر
وإن كانوا في بعض الأحيان يسعون حفاة الأقدام ،
عراة الرؤوس ، ونساءؤهم يغلون في الزينة والتبرج ، يمشطن
شعورهن ويرسلنها بالحيجي ، فهم رجالاً ونساء قديحسون
المدنية إحساساً طيباً . لا كالسود يعيش بعضهم في هذا الزمان
عراة أجسام إلا من أوراق الشجر تخفي عوراتهم وإن
أعلنت للناس مواضع أخرى كثيرة الشبه بالعورات !

أما سكان ما بين الشلال الأول والرابع فهؤلاء مزاج
من الأنس قد امتازوا بما يمتاز به التركي والعربي
والنوبي ، فيهم شجاعة النوبي ، وفي أخلاقهم مروءة العربي
وكرمه ، وشهامة التركي واحتفاظه بعزته ، يلبسون ملابس
المصريين في القرى والحقول ، ويطلقون لحاهم وشواربهم ،
ويحلقون شعر رؤوسهم ، ولنسائهم فن قد امتزج به ، يجدن
تجديل الشعر ضفائر دقيقة جداً كأنها السراط ، ويرخينها
إلى الوراء . ويتركها تسرح على الأصداع ، وسكان هذه
الجهات لا يشربون الخمر ولا يلذ لهم شراب غير ماء النيل
مجرداً من التثقية والتقطير .

وهؤلاء جميعاً في زواجهم يميلون إلى كسب قلوب
النساء قبل التفكير في الاستمتاع بأجسامهن ، ويميلون
إلى رضى أمهاتهن وآبائهن قبل كل شيء ، وكثير من
السودانيين على اختلاف ألوانهم وتباين أوضاعهم
الاجتماعية يحترمون المرأة ويقدرونها قدرها ، يشاورونها
في الرأي ويأخذون عنها في كثير من الأحيان .
وغير هذه الأنماط من الجماعات السودانية ، تجد
قوماً يضطربون في حياة الحياة المصريين حذوك الرأس

بالرأس ؛ فيهم التجار والصناع ، وفيهم المتعلمون كالمحامين
والأطباء ، وهؤلاء المتعلمون قد تلقى معظمهم العلم عن
مصر ورجالها أو في مصر نفسها والقليل النادر فيهم من
تعلم في الخارج ، هؤلاء يشعرون كما تشعر أنت وأشعر
أنا ، لا يفرقون بين القاهرة والخرطوم ، ولا يفاضلون
بين السوداني والمصري ، طبيعة الفاهم للوحدة ، المؤمن
بها .



علاقات الأسرة (١)

يرفه عرب السودان نساءهم ويدللونهن الى الغاية ،
فقلما تخدم المرأة في بيتها ، فالطحن والخبز والطبخ والغسل
كله منوط بالجوارى ، وعلى الخصوص الغسل ، فأن من
أكبر المصائب على المرأة أن تضطرها الحال الى غسل
الثياب وخاصة ثياب رجلها ! ومن مظاهر دلالها أنها
لا تتحرك من مكانها إذا دخل عليها زوجها سواء كانت
جالسة أو مضطجعة . فاذا أعوزته حاجة لا يكلف خاطرها
بل يقضيها هو بنفسه أو يطلبها من الخدم ، وبذلك تعود
النساء الترف والدلال حتى صرن إذا مشين تهادين في
خطوهن ، وقد تسير المرأة ساعة فلا تقطع مائة خطوة
ولا تسوخ قدماها في الأرض ولا يتغير فعلاها من
التراب .

(١) تاريخ السودان لنعم شقير

وعزيز المرأة الأول هو أبوها فهي تقسم برأسه كلها
أعوزتها الحجة ، وهي لا تنطق باسم زوجها ولا تدعوه به
بل تكنية باسم ولده البكر فتناديه بقولها يا أبا فلان أو
أبا فلانه ... فإذا لم يكن أنجب ولداً أو بنتاً كتته باسم
أبيه كقولها ياود فلان ... تعنى (يا ولد فلان) . وهي
قلما تقابل حماتها أو تحدثه في شيء إلا بعد أن تنجب لزوجها
طفلاً أو طفلة ، كما أن الزوج يبلغ به حياؤه الى حد أنه
لا يقابل حماته مطلقاً إلا بعد الزواج بمدة ، كما أن هذا
الحياء نفسه يحرم على المرأة أن تتناول طعامها مع زوجها
على مائدة واحدة ؛ كذلك يعتبر من شعائر الاحترام
ألا يأكل الزوج مع حميه أو حماته وهو لا يجلس في
حضرة حميه على كرسي أو عنجريب (١) بل يجلس على
الأرض تحية واحتراماً .

وأما حماته ويسمونها النسبية فاحترام الزوج لها فوق
كل احترام عكس ما نرى في مصر في كثير من الأسر ،
فبينما الحماة في عرف المصريين وصحفهم الهازلة عدو

(١) سرير

وشيطان الزوج إذا بها أعظم عند الزوج السوداني من
أمه وهي اليمين المغلظة التي يقسم بها ، فإذا قالوا الرجل ...
ونسيتك تقضى لي حاجتي .. وجب عليه بذل كل ما في
وسعه لقضاءها ، وكذلك الزوجة تقدر (نسيبتها) تقديراً
عظيماً وتضعها من نفسها موضع التقديس والا كبار .
والذنب الذي لا تغفره الزوجة لزوجها أن يسب
أباها أو أمها أو يتحدث عنهما حديثاً غير مستطاب ، فهي
لذلك تغضب غضبة مضرية قد لا تعود بعدها الى بيت
زوجها مهما قدم لها من اعتذار ...

وكما أن الرجل يحب حماه وحماته ويكبرهما كذلك
الحمو والحماة يقدران صهرهما ويعاملانه كأنه ولد من
أولادهما ويبالغان في تكريمه فلا يسيئان اليه مهما أفرط
في دلاله عليهما .

أما ابن الأخت فعزیز كالابن تماماً ، فالخال يعتنى
بابن أخته ويريه ويقدم له من نفسه وماله ما يغنيه في
الدنيا حتى ليزوجه على نفقته .

هذا مجمل لعلاقات الأسرة عندهم أما الفتاة أو السيدة
فعقابها القتل إن زنت أو حامت حولها الشبهات .

جمال الرجل وجمال المرأة (١)

الشباب الجميل في عرفهم هو من كان مربوع القامة
قحى اللون واسع الصدر ، مجدول الخصر والذراعين ،
طويل العنق منخفض الكتفين باسم الثغر مشلخ (٢)
الخدّين ، صقيل الأنف أفلج الشيا أدعج العينين مفتوح
الحاجبين باسم الثغر نير الوجه شريف الخصال .

والمرأة الجميلة هي من كانت مربوعة القامة مع الميل
الى الطول ، صفراء اللون طويلة الشعر غزيرته واسعة
الجبين ، زجاء الحاجبين دججاء العينين سادلة الأهداب ،
قنياء الأنف مع الميل الى التحدب ، لا كبيرة الفم ولا
صغيرته ، عريضة الشفة السفلى موشومتها وموشومة اللثة ،
مفلجة الأسنان بيضاءها مشلخة الخدين محفوفة الذقن
طويلة العنق ، منخفضة الكتفين واسعة الصدر ، ناهدة
الثديين ، رقيقة الخصر قصيرة الظهر ، مجدولة الساعد

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير (٢) مشروط

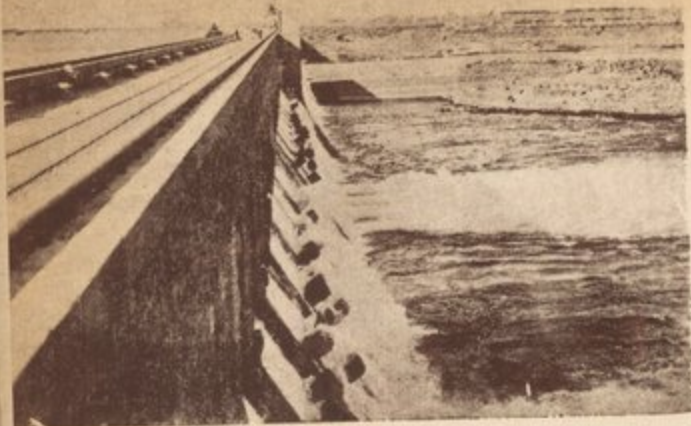
والساق ، رقيقة الأصابع بارزة الردفين مجموعتهما ،
صغيرة القدم رشيقة الحركة لينة الأعطاف ، إذا رقصت
انثنت إلى الوراء حتى يصل رأسها إلى قدميها ، وإذا مشت
تمايلت كالغصن إذا حركه النسيم ، خفيفة الروح باسمية
الثغر طلقة المحيا مصونة الحجاب جميلة الحركة أقبلت
أو أدبرت .

وأجمل نساء السودان نساء الجزيرة روى بعضهم أن
فقيهاً من أهل كردفان سمع بكرم الزبير في بحر الغزال
فقصده يريد منه نوالاً فأمر له الزبير بجارية فلم تعجبه
وقال « إني قصدتك لجارية عنقها طويل وردفها ثقيل
وشعرها غزير ، وبطنها ضمير وسنّها كالجير وعينها كتب
العدير إذا مشت كأنها أمير وإذا وقفت تعجب هذا
الفقير » وأشار إلى نفسه ! فقال له الزبير « علىّ الطلاق
إن هذه الصفات لا توجد حتى في بنات الجزيرة » ثم
نادى أحد غلمانه وقال إئتوه بزيتونة فأتوه بها وكانت
جارية جميلة فأعجبته فقال « قبلت زيتونة الصادقة المأمونة
اللهم اجعلها كزليخة المفتونة » فقال الزبير خذها وخذ
هذه الجارية لها فازداد الرجل إعجاباً بكرم الزبير .

سلكه سلكه
438
850
أخلاق عرب السودان

هي أخلاق العرب المشهورة في كل زمان ومكان
وهي حب الضيافة والكرم والمروءة والشهامة ومراعاة
الجار واحترام العرض والافتخار بالنسب ويعيننا الغريب
من أخلاقهم بأن فيه لونا من ألوان البقاء المحمود
وسأستعرض لك هذه الغرائب في إيجاز لأنها تدل على
طبيعتهم وتعطي صورة حية لمكارم أخلاقهم .

من إباءهم أن الجوع إذا ألم بهم أغلق الواحد منهم
بيته على أسرته وانتظر الموت جوعاً مفضلاً إياه على
سؤال الناس خوفاً من التعبير بذل السؤال ؛ والمريض
منهم إذا اشتد به المرض ألجم لسانه وفمه دون التأوه
والشكوى ، كذلك المسوق إلى القتل يأبى التوجع
والخوف ، وإذا أظهر المريض أكل تأوه أو المضروب
أقل توجع أو المسوق إلى الأعدام أقل جزع عيروه
وعيروا أسرته من بعده إلى الأزل . وعلى هذا الغرار
يحلوا لهم أن يظهروا بمظهر الشجاعة فأن كان أحدهم



خزان مکوار



کوبری
النیل الازرق



۱ سبتمبر ۱۸۹۸

20. 21.

22. 23.

24. 25.

سائراً في الطريق وتعرض له كلب ونهشه من ورائه
لا يرده عن نفسه بل يصبر على نهشه حتى تراه المارة
فترد الكلب عنه .

من أثقل الأشياء على أنفسهم أن يهرب أحدهم من
القتل ، فإذا ارتكب جناية تستوجب القتل لم يتردد
في انتظار الجزاء والخاتمة المحتومة ؛ وقد قيل في ذلك إن
رجلاً يدعى عبد الرسول كان متزوجاً بامرأة يؤثرها
على آله ونفسه وهي تكره أحد أخواله فمضت توغر
صدره عليه حتى امتلأ قلبه حقداً فقصد خاله حتى جاءه
ثم قتله بخنجره ثم أمسك بقدمه ليراه الناس وينال جزاء
جريمته وهي الأعدام من غير شك ، ولما حضر إخوة
القتيل ووجدوا أخاهم مقتولاً بيد ابن أختهم لم يثاروا
لأخيهم لأن العادة جرت ألا يُنتقم من ابن الأخت ، فلما
حضرت أختهم والدة عبد الرسول صاحت وولولت
ونادت بابنها وطلبت إليه ألا يعيش بعد أن قتل خاله
فأخذ خنجره ومزق به قلبه وخر على الأرض صريعاً
إلى جانب خاله فارتاحت أمه وقالت حقاً إنك ابني
وابن أهلك ! ثم حملوا القتيلين ودفنوهما في حفرة واحدة

ولعل هذا الخلق ، خلق انتظار القتل من غير تردد
أو جزع يرجع إلى الأثيوبيين من قديم الزمان .
ومن المعاييب عندهم أن الفارس إذا انكسر قومه
وقتل فرسه لا يفر ولا ينخزل بل يبقى يدافع عن عرينه
حتى إذا أخذه الأعداء افترش فروته ومكث ينتظر مقتله .
ومما يدل على كرم خلقهم أن أية امرأة إذا قصدت
أى رجل وسألته حاجة من حاجاتها ، قام لفوره ، ملياً
طلبها منجزاً حاجتها ، ولا بد له أن يقضى حاجتها مهما
كلفه هذا من مشقة أو عناء .

أما كرمهم فهو ترديد للكرم العربى المعروف الذى
يشبه فى كثير كرم أهل الصعيد ، فقد جعلوا فى كل بلدة
منزلاً خاصاً يضيفون فيه كل نازل ويسمونه « الخلوة »
فإذا نزل بهم ضيف طبخت ربات البيوت فى القرية
ما عندهن من طعام وأرسلنه إلى تلك الخلوة حيث
يسبق رجالهن يحيون الضيف الكريم ، ويمتاز عرب
السودان جميعاً فى كل نواحيه بأقراء الضيف وتكريمه .
وهم يتبارون فى أفراحهم بركوب الخيل أو الهجن ،
ويرفعون سيوفهم وعصيهم ببعض أصابعهم دليل شجاعتهم

وقوتهم ، ويتبارى فتيانهم برفع الأحجار الثقيلة على صدورهم أو رؤوسهم على غرار ما يفعل فتيان المصريين في مختلف الأقاليم .

ومن عاداتهم أنه إذا اختلف شابان لأمر ما أخذ كل منهما سوطاً ووضعاً بينهما عنجريباً (سريراً) ووقفوا في اتجاه مقابل ، ثم يخلع كل منهما ملابسه ويكاد يتجرد منها جميعاً ثم يجتمع الناس كشهود عدل ويبدأ أحد المتخاصمين بجلد الآخر سوطاً على ظهره ، ويرد الثاني السوط بمثله ، ويستمران على هذا الأسلوب حتى يخر أحدهما صريعاً من شدة الضرب فيحمل إلى بيته ويواتيه خصمه بحبه من جديد ؛ وهذه العادة غالبية عند العامة وقل في الخاصة من يقبلها .

وإذا أعجبت فتاة بشاب من الحضور ووقع حبه في قلبها نزعته من معصمها سواراً وألبسته إياه فيقف الشاب إذ ذاك ويهزه فوق رأسها هزاً عنيفاً متواصلاً ويقول « ابشرى بالخير أنا أخو البنات عشرة (١) فأذا ظهر بين الحاضرين من يناظره في حب هذه الفتاة ورأى

(١) يعني أنا الفتى الشجاع

سوارها في يده انبرى له وطلب مبارزته ، فيجلد أحدهما
الآخر حتى إذا تحرك أحدهم أو طرف له جفن وأظهر
شيئاً من التألم والتأوه لم يعد له في البنت نصيب .
ولعرب السودان لون في العشق غريب فهم يلطخون
بدمهم جبين حبيباتهم عنوان إخلاصهم ووفائهم ،
وعشاق أهل البادية يحبون الغزلان ويفقدونها بالروح
والمال لأن فيها بعض ما في عشيقاتهم ، وهم لذلك
لا يذبجونها ولا يصيدونها ، وهم يتكئون باسم حبيباتهم
وفارسهم في الحرب يقتحم الميدان وسيفه مسلول منادياً
« لعيني فلانة »



تاجرج وخلق (١)

كان «أوكد» رضى الطبع، لين الخلق، عذب الحديث
وكان أوكد عزيز النفس عظيم الجانب، جرى القلب
بعيد النظر صادق الفراسة، لا يهون مهما عظمت المحن
ولا يصغر مهما كبرت الأحداث، قد امتلأ رجولة حتى
آمنت قبيلته الحُمُرَان العريية أنه خير من يلى سياستها،
ويتدبر شؤونها ويرأس رؤسها.

وكان «أوكد» جميل المحيّا زكى الطلعة أنيق الملبس،
تتمثل فيه ملاحاة البيد وفي مظهره أناقة الحضر، ويسحرك
ببيانته وجماله ورقته جميعاً، تأخذك منه رياسته، وتلين
جانبك بديهته، لا يكذب ولا يخاتل ولا يزور عن الحق

(١) على ذكر عشقهم رأيت أن أعرض لك صورة من جبهم العنيف وهى
قصة يعرفها أهل السودان جميعاً كما يعرفها من عاشرهم من الأجانب، وهى
أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة كقصة لىل وقيس على أن فيها من العظة والعبرة
وحسن الأحداث ما يجعلها مثلاً للعشق الحلال والهوى الطاهر العفيف تقدمها
لك فى أسلوب قصصى تستطيع أن تقرها فى غير التوا.

والصدق ، قد اختصمت فيه أخلاق البيد والحضر ثم
انحسرت فاذا أوكد ثمرة الخصام ومتاع الفتنة ، وإذا به
مثل السودانين في جمال الخلق وكمال الخلق ...

وكان لأوكد فتاة هي مثال الفتيات في بني الحمران ،
وهي عنوان لأبيها وقبيلتها ، فيها ملاحظتهم وجرأتهم ،
جمعت في نفسها إباءهم ، وضمت في صدرها عزتهم ، وأخذت
لعشاقها سحرهم وسلبت في حديثها عدوبتهم ، وسرقت لقلبها
رقتهم وأملت على حاشيتها رقتهم ...

وكانت « تاجوج » قد اضطرب قلبها بهذا الحب
المترف الذي يحسه السودانيون في قدسية الناسك المتعبد
ويؤمنون به وإن لم يروه ؛ كانت ترى في ابن عمها ملاحظة
وعزة ، والسودانيون يعشقون الجميل ويعجبون بالعزیز
الكریم ، لا يجرمونه نفوسهم إن هفا لها ، ولا يضمنون
عليه بمألهم ورجالهم إن استعدادهم على جائر أو ظلوم ...
وكانت تاجوج قد رأت في « محلق » إباء وعزة وحياة
كلها جد لاهزل فيها ، وأحست في جنباتها حنيناً إليه
فأصغت بالموددة له ورغبت عن الزواج مرات ، والفتى
مرهف الحس أذاع الحب فيه حياة وقوة وملاءة نشاطاً

وجرأة ، وليس العشق في السودان يباع ويشترى ؛ وقد
تشتري قاب المرأة لا بالدراهم والدنانير بل بالفضل
والكرم والشجاعة والأقدام .

كانت تاجوج إذن تحب ابن عمها محلقاً لأنه كريم
نبيل ، شجاع مقدام ، حتى إذا أقبل في ذات يوم أو في
ذات مساء وجلس إلى الشيخ الكبير أو كـد يعرض قلبه
ونفسه ويزجيها بحياته الحافلة بالرجولة والعزة لم يتردد
الشيخ الوقور في قبول ابن أخيه الكريم بعلا لابنته
الحسنة ، ولم يهن العشق الحلال قط فقبلت تاجوج أن
تهب نفسها وقلبها لابن عمها الكريم المقدام .

وملأت تاجوج بيت زوجها مرحاً وشغلته بالأنس
وأذاغت فيه بهجة من نفسها ونوراً من عينيها ، وهدنى
الزوج المشغوف يختلف إلى الحياة ويضطرب فيها كما
يضطرب كرام الناس ، ويعود إلى زوجه بعد غيبة طويلة
أو قصيرة يحدثها أن القبيلة قد خاضت قوماً وانتصرت
عليهم بعد لآي ، ويذكر لها كرم وفر العدو ، ويذكر لها
أنباء جهاده وأصحابه ، وشجاعة عمه وفطنته . حتى إذا طمأننت

على قبيلتها من الضيم رضيت عن زوجها وقبلته قبله خاطفة
نبيلة لا شهرة فيها ولا اشتها... .

* * *

وفي ذات يوم سكر زوجها بخمرة النصر وكسب
العيش ولين الحياة فأحس في نفسه ميلا إلى الترف كما
رآه في حاضرة من حواضر الشرق كان قد آب منها في
جفر ذلك اليوم ، وود من زوجته لونا آخر من ألوان
المداعبة كان قد شهد في إحدى هذه المدن التي يترف
الناس فيها حتى النزق ، ويلهون فيها حتى الفجور ، طلب
اليها في غير استحياء أن تتجرد عن ثيابها وتقطع الحجر
جئة وذهاباً ، فإنه يود أن يتمتع نفسه كما رأى الناس في
حواضر المدن يتمتعون... . ولكن تاجوج أبت عليه
هذا العبث ، وضنت بنفسها أمام ضميرها أن تكون زوجة
صغيرة حقيرة يتمتع بجسمها ويعشق قوامها قبل أن
تعشق روحها... .

أبت مرة ومرة ، وودت لو تسوخ بها الأرض قبل
أن ترفع عن نفسها حياءها وتخلع عن جسمها ثيابها... .

ولكن زوجها كان قد فتن بهذا اللون من إمتاع النفس
فرجا وألح في الرجاء ، وتمنى عليها أن تجيبه إلى هذه
الرغبة الملحة ووعداها جزاء طيباً ، فلما رأت منه هذا
الألحاح وشعرت أنه يرد لها هذه الرغبة بما تحب طلبت
إليه أن يعدها ويقسم أن ينزل لها عندما تريد . . . فلما
خلعت ملابسها وتجردت منها كما ولدتها أمها وراحت في
الحجرة تعرض جسدها هذا العرض الرخيص ، وأشبعته
رغبته القبيحة من النظر القبيح . . . قال مر إذن
بما تريد . . .

قالت أريد أن تطلقني في الحال ؟ ! . . .

طار صوابه . واضطرب قلبه وساخت روحه لأنه
رجل شريف . . . ود لو ترضى بحياته دون هذا الطلب
لأجابها ، مضى إليها مستغفراً لها ، مزجراً نفسه مسخفاً
فعلته ، راجياً منها أن تعفيه من إجابة هذا الطلب ، ولكنها
أبت عليه الرجاء فأخذ يقبل قدميها ويحشو لعل قلبها يلين
ولعل نفسها ترضى وتغفر له ما تقدم من ذنب ،
ولكنها أبت . . .

لم يكن بدمن الطلاق فخلق رجل شريف، والشريف
إذا وعد أنجز وعده مهما يكن في انجاز الوعد من قسوة
ومهما يكن في تليسة الواجب من خطر على النفس
والقلب تاجوج إذن رجل شريف كريم على
نفسه لا يحب أن يقال وعد فلم يبر بالوعد ، وخاف أن
تنبذه قبيلته إذا ما سعى إلى نقض العهد . .

مضى مخلّق تعساً مولها كالمجنون في ليلاه يذيع
الشعر السودانى الرقيق ، ينطق قلبه شعراً لا يحسه إلا
عاشق مفتون ، يتنقل بين البيد والحضر ، لا يذكر مالا
ولا جاها وإنما يذكر إذا أقبل الليل أو استيقظ النهار
تلك التى ملكت عليه حسه وأضاع مودتها في سبيل لذة
فارغة يشبع فيها النظر لمحّة خاطفة ؛ يذكر أياماً عزت
نفسه بها ، وراقت حياته معها ، ورفّ عليه متاع من
السماء جعل حياته نعيماً وبدل سخطه رضى ، وأتسع أمله
فى الله والناس حين اتسع بيته لتاجوج ؛ أما وقد خلا
البيت من تاجوج فقد غضب الله وصدف عنه الناس
فهو يحوب الصحارى والفلال يردد شعره فلا يجد معينا

أو مترحماً إلا صدى الصوت الخافت الحزين كأنه
لا يريد أن يبلغ الناس حسرته بل يحتبس في قلب
صاحبه المكلوم .

كانت عفة تاجوج أحسن الأمثال عند السودانيين
يتناقلونها جيلاً بعد جيل ، يذكرونها في البوادي ويكبرونها
في الحواضر ويرفعونها فوق التهم ، وترقى بهم قصتها إلى
نحو من الذكري الحلوة الجميلة ، يعرفونها في اشعار محلق
حين يغنيها السودانيون في كل صقع وناد ، ويروون عفتها
وطهارتها ، جمالها وسحرها في هذه المعاني التي يتنادر بها
الشعر والأدب السوداني ، وقد أَرْضَى السودانيون أن
يكون محلق زوح تاجوج حتى إذا طلقها ضرب مثلاً
للرجل الكريم حين يكبر الحب عن الهوان ويرفع
العشق عن العار ، وينتقم للهوى العفيف من الهوى
الوضيع وينال لحبيته من نفسه ، وينصب من
ضميره قاضياً يرد اعتبارها ، ويشغل حياته بالآلام لعلها
أن تمسح من ماضيه هذا السواد الذي خطته زيارة

هذه الحاضرة الشرقية التي دعتة إلى الزلزل وركبته مواضع
الابتدال....

كان محلّق فارساً شجاعاً مقداماً ، قد أغاظه أشد الغيظ
أن تتزوج تاجوج رجلاً من عيون الحُمُران ، مهما يعظم
شأنه ويعلو قدره فهو دونه في العلم والحجى ، ودونه في
قطع المفاوز وبلوغ المنى ؛ فكان يتربص به فيجرده مما
يملك من متاع ومال حتى تذاع فعلته عند حبيته ، فأذا
علم أن زوجة الأمس وحبية القلب قد أملت لفعلته رد
المسلوب إلى صاحبه لعلها أن ترضى ، ولعلها تحس أنه
لا يزال يذكرها وفي ذلك بعض العزاء.... كان يعتمد
إلى هذا مضطراً إليه لاجباً في السلب والنهب بل رغبة في
أن تصله هذه الأمور المصطنعة بجمال صاحبه فينال
عفوها ، لعل في عفوها عن هذه الصغائر عفواً عن
الكبيرة التي ارتكبها في ساعة النزق وطيش الشباب

كان محلّق مرهف الحس ، دقيق القلب ، رقيق
الحاشية ، لم يسعفه جسمه الفاره حين ألم به المرض

واتابته الوجيعة ففرض مرة ثم شفى ، ثم عاوده المرض
فى عىف وقسوة كأنه يطهره من رجسه الخفيف . . .
وكان محلق شديد المراس يدافع المرض وينتصر عليه
بيد أن العلة لم تكن رفيقة به ولا عطوفاً عليه فأقبلت
كأنها الجبل لا يحتملها جسم مهما فره وطال ، وأحس
الشاعر مولته أن شيئاً ثقيلاً عليه نزل به لا يحتمله، وأن
هذا الطائف الذى يلم بالناس ويعلى عليهم انتهاء العمر
وقضاء الله قد أفسح الخطى إليه لا يمهله مهما استمله . . .
يطارده ويحاوره . . . فأسر محلق إلى أهله وعشيرته أنه
يودع الحياة فيود لو يودعها فى تاجوج! . . . وتمنى عليهم
أن يهبوه فى لحظة الأخيرة أثارة من جهم فيدلوا صاحبتة
على قضاء الله فيه . . . لعلها تتفضل بزيارته فإنه يريد أن
يستقبل ربه من خلال عينيها ويترك روحه فى أنفاسها . . .
وأحست العشيرة أن عزيزاً من كرامها قد ذل . . .
والسودانيون لا يردون عزيزاً عن رغبته ولا يقفون
لكريم فى حاجة .

وخفت تاجوج إلى حبيب القلب ، وسعت إليه
مضطربة ترجو من سعيها أن ترد إليه الروح وتعتذر
عن قسوتها بدموعها ، لعل في ذلك شفاء له وبرءاً من
سقامه فلما دنت من سريرته ونساء القبيلة حوله تحولت
إليها أبصارهن زائغة، فسألت أين يكون حبيبها من الحياة؟
قلن البقية لله

قالوا... ثم أسرت تاجوج فيمن أسر في حرب
بين « الهدندوة » وبنى حمران كانت الكفة للهدندوة ؛
واختلف المنتصرون على تاجوج لمن تكون ؟
وكاد الحسام أن يحل الخلاف وكادت القبيلة
أن تتوزع أفراداً وشيعاً ، وينقلب انتصارهم خزيّاً وعاراً
ويتنادر الناس بأن الهدندوة قد توزعوا من أجل امرأة
وتفرقوا في سبيل تاجوج
ونادى شيخهم عليها فلما أطلت من خبائها طعنها حتى
يخلص من فتنها ...
وماتت تاجوج وإن بقيت تحيا فتنة الأجيال وذكرى
الحب والشعر والجمال .

« في هذا الفصل بعض ألفاظهم وأمثالهم وأحاجيهم وألغازهم
وأغانيهم ، ذكرناها لذلك على معاني الحياة في اعتبارهم ،
وهي أقرب ما تكون لنا في مجال القول عندنا » (١)

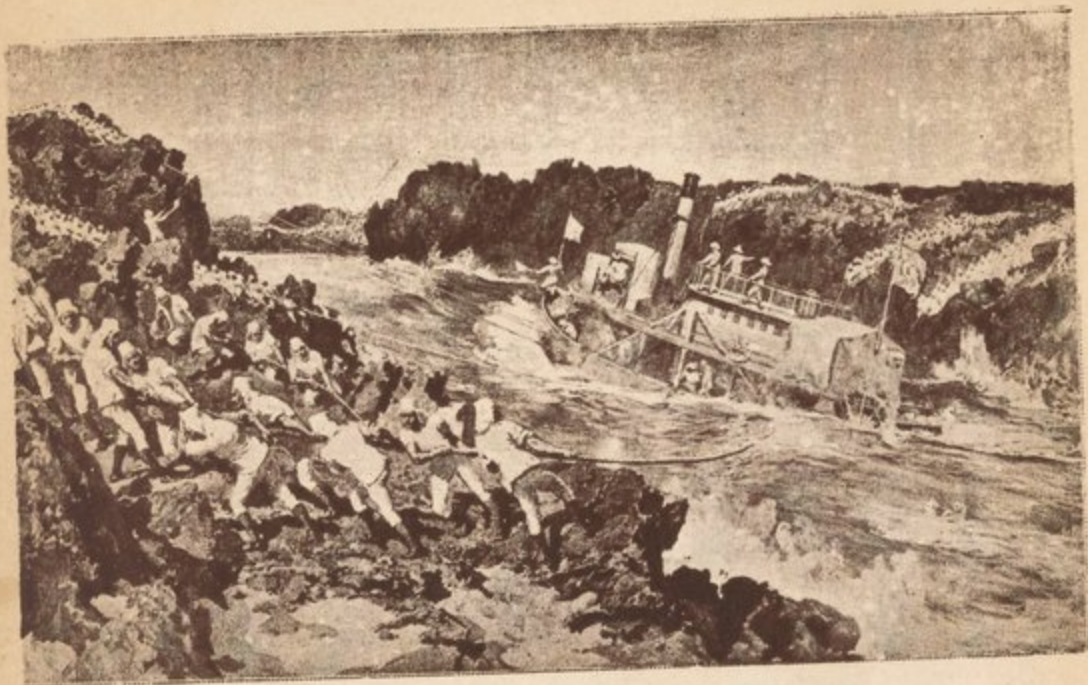
العربي السوداني	العربي الفصيح	العربي السوداني	العربي الفصيح
اسمك منو	ما اسمك	سمح بالخير	جميل جداً
ارحاني	انتظرنى	شال المكان	ذهب إليه
الأضينه	الجبان	البقة	العاصمة
البكا	المأتم	برىء	حاشا
العوين	الأولاد	التكل	الكوخ
تدور شنو	ماذا تريد	القلعة	الخصبة
الجلابة	التجار — القافلة	الكفريات	العاديات
جت براها	جاءت من نفسها	الكاره	الثكنة
جنب ساكت	الولد	كعب	بطال
الجنى	استرح — اصمت	كورك	رفع صوته
الحلة	القرية	كيفنك	كيف أنت
الملقة	السير ساعة	الجوبة	الجدة
المشرع	المرفأ	حبابك عشرة	مرحباً بك
متين عرست	متى تزوجت	ما بخبر	لا أعلم
الديم	المعسكر	نضم	تكلم
الزول	الرجل	هسع	هذه الساعة
السرف	نبيع ماء جار	هوى	أداة نداء
سوط المطر	قوس قزح	الوطا	الأرض
الهف	الحطة	الكف	العبد
الحوم	الزيارة		

(١) « أمثال العوام في مصر والسودان والشام » لنعوم شقير

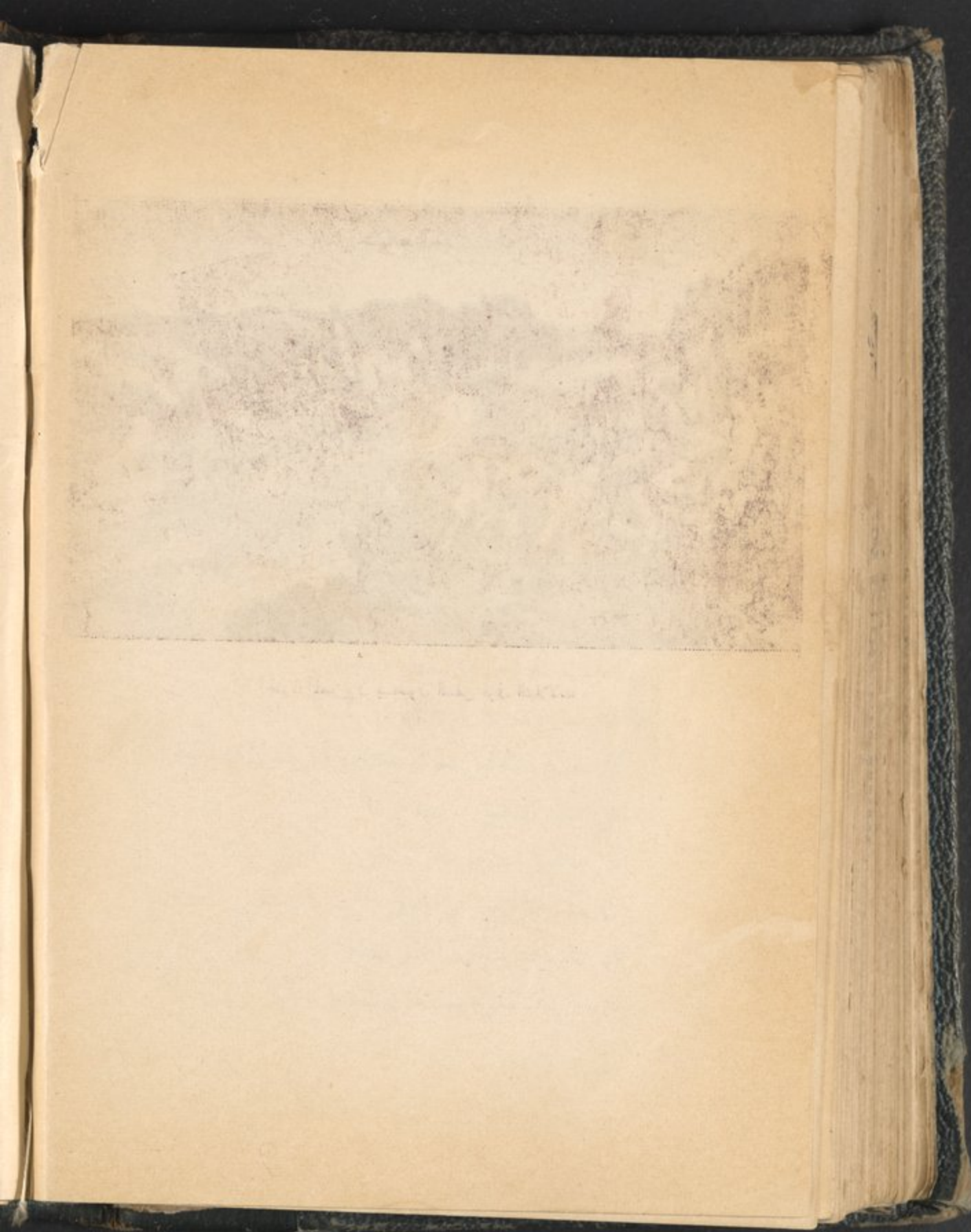
أمثالهم

الأبرة ما بتشيل خيطين والقلب ما يبسع اثنين
احترام النسب عند اللثام أربعين عام وعند الكرام
مدة الدوام

الأخ واحد من اليمين
أخذ الثار ينفي العار
أربط صباeck صحيح لا يدمى ولا يقيح
أرقد دافى تقوم متعافى
الأصبع الواحد ما ييغطى الوجه
أعمل معروف وواديه البحر
اللى تقوم ذقنه قبل شواربه شاور المره ولا تشاوره!
اللى عنده الدقيق ما ييعدم النار
اللى ما فيها شق ما بتقول طق
اللى ما ييلع ريق على ريق ما ييمسك رقيق
اللى ما ييجيب ثاره الحمار خاله!
اللى ما يستحمل الشر ما يستحمل الخير



الجنود المصريون يسحبون السفن فوق الشلالات



أمسك في الكذب لما يوصلك الصح
ان كثرت عليك الهموم أرقد نوم !
ايد الميرى طويله !

بيت الشوره ما خرب
بيت عمال ولا بيت مال
البيت يشيل مائة راجل ما يشيل امرأتين
بركة الكلام في قلته

بعد أملك وأبوك الأهل جيران
البلد ما يقتلها إلا ولدها !

تاجران لا يربحان تاجر الكف وتاجر الهف
تربى هزيل الجمال ينفعك تربى هزيل الرجال يقلعك !
تزوجوا فقرا يغنيكم الله وسافروا مرضى يشفيكم الله
الحقة العفنة في اللحم تعفنه كله
الحق مر

الحمار شكروه رقد !
خصام الرجل الذكر . ولا صحبة الرجل الأضينة
الخييل ظهورها عز ويطونها كنز
الدين ولو درهمين يسود الخدين !

رفيق اثنين كذاب وركاب سرجين وقاع
صاحبك إن أباك قلل عليه الحوم وبطنك إن وجعك
كثر عليه الصوم
الطبع جبل لا يتحول
الطول فاقة والقصر عاقة !
ظلم البهايم حرام
الغرض مرض
عصاية العز لا تضرب تنكسر
الغنى فى القناعة والحرب صبر ساعة
الفاس ما بتقطع عودها
فاكمة الرفيق أخير من رأس رقيق
القلب يرى قبل العين
القمر إن ضوى لا فايده فى النجوم
كثرة الطله ترخص أعز خلق الله
كل وسط ونام طرف
الماء ما بتروب والفاجرة ما بتوب
مائة صاحب ولا عدو واحد
المجنون يضحك على طبيبه !

المره مكسورة الجناح
المريض يكره دواه
من خلص دينه نامت عينه
ناسب أحسن منك وعاشر أحسن منك
الميته ولا شماتة الاعداء
وجوه الرجال خناجر
لا قيني ولا تغديني
يا حافر حفرة السوء وسع مراقدها
يدُ الحر ميزان

« اطلب الشيء بثلاثة : باللين فأذا لم تظفر به فبالمال ،
فأذا لم تفلح فبالحرب ، فأذا لم تستطع الحرب وعدمت
المال فعد إلى اللين فإنه ميسور لكل إنسان ، فأذا لم تنجح
فدع ما أنت طالبه »

أحاجهم وألغازهم (١)

ازرق كحيل راكب على ثلاثة خيل	»	القدر موضوعة على ثلاث أنافى
ترن ترن عند البحر حرن	»	الحذاء فانه يتخلع عند الخوض فى الماء
دخل فى القش ما قال كش	»	الظل
سوط الملك وقع مين يشيله	»	الثعبان
ظله فى بطنه	»	الحفرة
ظريف وطفيلي	»	ظل الانسان
عنيزته ماسكها من دنيها وهى ترعى	»	الموسى
هو بارك وفى السماء يعارك	»	المدخنة

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير

بعض اغانيهم

قال عبد الله أبو سن في محبوبته « نجوم » :
إسم أم شلخ نجوم نزلته في اليوميّة
بتحصن به في الأوقات صباح وعشيّة
كل من جاب سلامك يلقي عندي هدية
لكون الجمال عند الله له مزيّة
معدومة النظير في الدنيا بالكلية
بيتك لي جنّة وحضرتك حوريّة

وقيل في المدح :
ما ييطارد كل الزّالة وفوق البشاوات هو معلى
يأمر بالشنق والحلّة وماشوف كيفه حاشا وكلا

إلى هذا الغناء المتواضع توجد أنواع أخرى من
الأغاني التي قيلت في النبي (صلعم) وفي المهدي ورجاله ،
وهي الرغم من اضطرابها في الأسلوب والمعاني اضطراباً
لامثيل له في الآداب المعروفة لنا إلا أنها تضم أحياناً بين
أعطافها كثيراً من التفكير المستقيم والرأى الصائب .

أبطالهم

عرفت في الفصول السياسية أن السودان لم يكن خلواً من المجاهدين ، وقد أظهر عام ١٩٢٤ روح الوحدة في نفوس المواطنين من أهل الجنوب ، على أن ثورة السودان على الانجليز في تلك السنة تمتاز باجماع الطبقات السودانية عليها ، ساهم فيها العامة فرفعت من قدرهم لأنهم أعلنوا بثورتهم صدق وطنيتهم وعميق إخلاصهم لبلائهم ، وساهم فيها الخاصة فأكبرت الثورة نفسها حيث أحسها الشعب بأسره ، وأرفع الثورات وأعظمها خطراً ما جاهدت فيها جميع الطبقات . ولا أعتقد أن هذا الكتاب يستحق عطفاً أو تقديراً إذا خلا من الحديث عن أنصار الوحدة الذين كانوا علماء في الثورة الأخيرة المعروفة ، فالحديث عن هؤلاء الأبطال حديث عن الغاية المرجوة من وحدة القطرين . وعندى أن أجمل تحية نرفعها لمواطني السودان أن نذكر في مثل هذا الكتاب أبطالهم في الجهاد وعظماءهم في التضحية وهم أبطالنا وعظمائنا على كل حال . . .

على محمد البنا

هو من مجاهدى السودان الأبرار الذين ملك حب
مصر أفئدتهم ، وطبعوا على الوفاء بها وجعلوا نفوسهم
لها ، ومشى الاخلاص فى دمائهم فرفعهم فى عيون
مواطنهم ، وسما بهم فوق رؤوسنا . . .

هو من فتيان عرب السودان انحدر من بيت رفيع
مشهور بالعلم والفضل ، مفطور على المروءة ، مطبوع على
الولاء للدين والوطن ، هو ابن السيد الحسيب النسيب
المرحوم الشيخ عمر البنا كبير مفتشى المحاكم الشرعية
بالسودان سابقاً .

تخرج فى المدرسة الحربية عام ١٩١٩ ، وألحق بالأورطة
العاشرة السودانية برتبة ملازم ثان ، ثم انتخب معلماً
لضرب النار ومدفع الما كينة بمدرسة ضرب نار الجيش
المصرى ، وأخيراً انتهى به المطاف الى الأورطة الثانية
عشر السودانية بملاكال .

وفي سبتمبر ١٩٢٤ كانت الحياة السياسية في السودان
عنيفة تضطرم في صمت وسكون ، وكان الضباط السودانيون
أشد الناس اضطراباً وأكثرهم وفاء لمصر والمصريين ،
وفي هذه الحياة المضطربة أتهم الضابط علي محمد البنا
افندى هو وثلاثة من زملائه بأنهم يحرضون الجنود على
التعلق بملك مصر والهتاف له كما اتهموا بالولاء للسافر
لسعد زغلول زعيم النيل .

فأبعد عبد العزيز شريف افندى وعزيز حيدر افندى
(وهما ضمن ضباطنا المصريين الآن) الى مصر وهما
شريكان لعل محمد البنا افندى في تهمة الوفاء لمصر ومليكيها
وزعيمها المبرور ، أما رابع هذه الجماعة النيلة وهو محمود
محمد الندى افندى (وهو في مصر أيضاً) فنقل للأورطة
العاشرة السودانية بتالودي ...

وفي ديسمبر ١٩٢٤ حوكم علي محمد البنا افندى أمام
مجلس عسكري قضى بأعدامه رمياً بالرصاص لاشتراكه
مع الضباط والجنود السودانية في الانضمام الى إخوانهم
المصريين ورغبتهم في السفر معهم الى مصر ، فاعترضتهم
وهم في طريقهم إلى هذه الغاية قوة انجليزية وأمطرتهم

وابلا من الرصاص لتحول بينهم وبين تحقيق أملهم
المشود ، فردوا على الاعتداء بمثله فكانت حادثة الخرطوم
المشهورة .

وقيد محمد على البنا في رباطة جأش الى ساحة الأعدام ،
وبينما هو يستعد للقدر المحتوم جاء النبا باستبدال هذا
الحكم القاسى بخمس عشرة سنة يقضيها بين سجنى الخرطوم
وبحر الغزال ، وفي سنة ١٩٣٤ أفرج عنه وعوفى من
السجن بقية المدة كأرادة السير ستيوارت سايمز حاكم
السودان العام ، وكان صاحبنا قد قضى عشر سنوات في
السجن مع أشغالها الشاقة فى رضى واطمئنان .

وفى أغسطس ١٩٣٤ أقبل هذا المجاهد الكريم الى
مصر وظل يسعى فترة من الزمن حتى وفق الى عمل كتابى
بمصلحة الأملاك الأميرية بمرتب لا يتجاوز إثنى عشر
جنيها فى الشهر ، وكان هذا بأس الجزاء ... !

وفى ١٥ أغسطس ١٩٣٦ قرر مجلس الوزراء إنصاف
الرجل فعينه ضابطاً فى مصلحة خفر السواحل برتبة
اليوزباشى تقديراً لتاريخه العظيم وكان فى ذلك بعض
العزاء .

على عبد اللطيف

هو من القادة الذين عرفهم السودانيون في حرية
الفكر وصفاء السريرة وقوة اليقين ، لا التواء في قصده
ولا غاية لنفسه ، فقد جعلها لبلاده متاعاً ولوحدة النيل
تحية فكان نعم المواطن الكريم . . .

هو سودانى من أصل قيل إنه زنجى التحق بكلية
غردون في الخرطوم ونهل منها سنوات ثم انتقل إلى
المدرسة الحربية التي أنشئت بعد الفتح الثانى لتخرج
الضباط السودانيين ، فلما جاز امتحانها النهائى ألحق
بالجيش المصرى عام ١٩١٤ فى الأورطة الحادية عشرة
السودانية ثم نقل منها إلى حكومة السودان وبقى فيها إلى
أن أعيد إلى خدمة الجيش المصرى هناك

وفى مايو ١٩٢٢ حكم عليه بالسجن اثني عشر شهراً
وفصل من خدمة الجيش لخروجه على حكومة السودان
وانتقاده لأعمالها ، فقد وجد أن اتفاقية ١٨٩٩ لا تنفذ

إلا في صالح الإنجليز ، وليس هناك أمل في أن تسمح
هذه الاتفاقية بالوحدة المنشودة التي كانت تتردد
في نفسه ، لأن الحكومة القائمة كانت تعمل ما وسعها
الجهد على أن تبعد الشقة بين الشقيقين ...

جهر الضابط الحر بالنقد علناً وحمل حملة عنيفة على
سياسة الإنجليز ، ونادى بصراحة السودانى الجريء أن
لا بد من وحدة النيل تحت العلم المصرى ، وأن
لا بد أن تستقل مصر والسودان استقلالاً تاماً ؛ وكان
في أسلوبه ينسج على منوال زعيم مصر سعد زغلول ...
قضى على عبد اللطيف افندى مدة السجن في ثبات
وإيمان ثم أفرج عنه ١٩٢٣ ، ومضى على خطته التي رفت
من أجلها وسجن ، وفي ١٩٢٤ أُنْتُخِبَ رئيساً لجمعية اللواء
الأبيض (١) المشهورة التي جعلت خطتها الأولى أن
تستقل مصر والسودان ...

وقامت الثورة التي حدثت عنها في الفصول السياسية
سنة ١٩٢٤ ، وقد علمت أن الذين قاموا بالثورة من

(١) كتاب السودان للأستاذ عبد الله حسين وكتاب آثار الزعيم

الخالد سعد زغلول للأستاذ الجزيري

السودانيين ، واشتهرت جمعية اللواء الأبيض بزعامة
رئيسها علي عبد اللطيف في هذه الثورة ، فقبض على
أعضائها جميعاً ومن بينهم رئيسها وحكم عليه بالسجن ونال
البطل علي عبد اللطيف جزاءه عشر سنوات في السجون
إنتهت في ١٩٣٤ ، ولكنه لا يزال في سجنه بالرغم من
انقضاء المدة وذلك لأنهم يزعمون أن بعقله خللاً ، ولم
يتمت كما أشيع في مصر والسودان ...

هذا بعض تاريخ هذا الرجل الأبى الكريم ، مثال
من الأمثلة التي ينبغي أن يتوارثها الخلف عن السلف
عبرة وذكرى ...

أفراحهم (١)

سن الزواج عندهم من الخمس عشرة سنة فما فوق للرجال ومن العشر سنين فما فوق للنساء ، ولا بد للطالب من رؤية البنت التي يروم خطبتها ولو بالحيلة ، فإذا حسنت في عينه سعى في استرضاء أهلها وخاصة والدتها وعقد الخطبة بالقول .

ثم يذهب أقاربه إلى بيت أبيها في يوم معين لكتب الكتاب وتعيين المهر وهم في الغالب يغلون في المهر حتى لقد يبلغ خمسمائة وعشر أبقار وعشر جمال وأربعين رأساً من الغنم يقدمها الخطيب ، الثلثين على الفور والثلث الباقي أقساطاً بعد الزواج ، وهم على عادة البجة إذ أن أبا البنت لا بد له من أن يخصصها بشيء من ماله وإلا عُيرت به وربما خصها بما يساوى مهر الخطيب أو أكثر ،

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير وهو أفضل مرجع لحياتهم الاجتماعية لو أنه خلص من شوائب التحيز ولم يضرب على النغمة التي ترضى الإنجليز وتسىء إلى وحدة القطرين

ولذلك ترى الكثير من النساء يتركن عذارى لعدم
اقتدار الرجال على صداقهن .

وقد سعى بعض ولاية الفتح الأول مثل أحمد باشا
أبودان وغيره في تخفيض مهر البنات فجعلوه من
٧٥ إلى ١٥٠ قرشاً ، وحضوا على الزواج وكذلك فعل
محمد أحمد المهدي فجعل مهر الثيب خمسة ريالات ومهر
البكر عشرة ، ولكن الأهالي ما لبثوا أن عادوا إلى
عادتهم القديمة وعاد البنات إلى الكساد .

وعرب السودان يحترمون النسب جداً وينزلونه
المنزلة الأولى في تزويج بناتهم فلقد يزوجون رجلاً
ذا نسب لا يملك شيئاً ولا يزوجون رجلاً مثرياً لا نسب
له ؛ وإذا حل بأرضهم رجل شريف يرجع بنسبه إلى
النبي (صلعم) أو الصحابة بالغوا في إكرامه وزوجوه
بناتهم بلا مهر رغبة في التقرب منه . وهم أيضاً يتبركون
برجال العلم والصلاح يزوجونهم بلا مهر وعند اتفاق
الفريقين على المهر يكتبون الكتاب ويعينون الدخلة
في يوم يتفألون به ، وقبل حلول اليوم المعين بأسبوع
يعد العريس الذبائح وشيئاً من الذرة والروائح العطرية

والكحل والحناء والأكسية للعروس وماشطتها
ووزيرتها ، ولكن من أقاربها الأخصاء ؛ ويدعون بنات
البلدة فيحملن هذه الأشياء على رؤوسهن في أطباق مغطاة
بالمكبات ، ويسير أمامهن النساء يضربن الدفوف ، ويرقصن
ويغنين ووراءهن الشباب يرقصون ويتباطنون بالسياط
إلى أن يبلغوا بيت العروس فيستقبلهم أهلها بالترحيب
ويقدمون لهم الطعام والشراب فيأكلون ويشربون
ثم ينصرفون .

ومن ثم يشرع أهل العروس في الاستعداد فيضعون
العروس في مكان منفرد مع بعض قريباتها ويسلمونها
إلى الماشطة فتمشط شعرها وتضفره ، وتطويه وتلبسها
أعلى الثياب من وسطها فنازلاً وأما صدرها ورأسها فلا
يسترهما إلا الحلي ؛ أما العريس فيلبس ثوباً بسيطاً بحاشية
من حرير ، ويلبس في يده سواراً من الحرير فيه خرزة
خضراء ، وسواراً عريضاً من الفضة أو الذهب ، وفي
عنقه طوقاً من الذهب ، وهذا هو اللبس المعروف
عندهم ، ويبقى عليه هذا اللبس من سبعة أيام إلى أربعين
يوماً بعد الزواج وذلك لمنع الإصابة بالعين !

وفي اليوم المعين للدخلة يجتمع أهل العريس وخلاته
نساء ورجالا في منزله فيزفونه على فرس إلى بيت العروس
فيقود الفرس بنتان بنت عن اليمين وبنت عن الشمال ،
وتسير النساء أمامه يغنين وينقرن الدفوف والطبول
والرجال وراءهم يتباطنون والبنات يرقصن الرقص
المعروف عندهم ، وهو الرقص بخفة ورشاقة ، والعريس
يهز سوطه في الهواء استحساناً للراقصات والمغنيات ،
ويسير الموكب الهوينا إلى أن يصل إلى بيت العروس
فيستقبلهم أهلها بالترحيب والأكرام .

ثم يزفون العروس في منزلها وهو الغالب أو يزفونها
في شوارع البلدة تحف بها البنات وبأيديهن الشموع
ثم يعدن بها إلى المنزل فيجلسنها على عنجريب في مكان
أعد لها ، ويجلس حولها البنات والنساء والماشطة (١)
ووزياتها .

وبعد العشاء يدخل العريس عليهن ومعه شابان من
أصحابه يعرفان بالوزيرين فيصفق له النساء ترحيباً به
ويجلسنه مع وزيريه على عنجريب أعد له ؛ ثم يقوم

(١) يقال عنها في بيوتنا البلانة !

العريس فيتحف الماشطة والوزيرتين بهدية من المال ،
ويأتى إلى عروسه فيقطع رهطها ، ويلبسها القرباب ،
ثم يشرع فى مداعبتها وترقيصها رقصاً يعرف عندهم
بالجلع (١) وذلك بأن يغمز خنصرها ويخز خاصرتها
بظفر يرييه ويحدده لهذه الغاية فتتلوى العروس إذ ذاك
وتتحرك حركات رشيقة بحيث أنها إذا كانت موجهة له
ووخزها بظفره تنقلب بخفة ورشاقة فتوليه ظهرها
وتصيح صياحاً عالياً قائلة واى . . . واى متبعة ذلك
بأنات رخيمة ، وشهيق مستعذب ، وفى أثناء ذلك تغنى
النساء غناء يصنفن فيه العريس بالسخاء والمروءة ،
والعروس بالجمال ورفعة النسب .

ويبقى أهل العريس فى بيت العروس من ثلاثة أيام
إلى سبعة ، وأما العريس ، فيبقى مع عروسه فى بيت أبيها
إلى أن تلد فيذهب بها إلى أهله

وبعد الأربعين يوماً يخرج العريس إلى السوق
ويرسل إلى عروسه أنخر ما يحده فيها من اللحوم والخضر
والفاكهة فتدعو العروس صديقاتها ، وتولم لهن وليمة من

(١) الدلع !

هدايا العريس وهو يوم يعرف فيه كرم العريس وسخاؤه
وهم يختنون أولادهم ذكوراً وإناثاً ، ولكنهم
لا يحبون الطهور الباكر ، فقلبا يختنونهم قبل
السنة السابعة

ويجوز لمن توفيت امرأته أن يتزوج أختها بمهرها
ولكن لا بد له من موافقة أبيها قبل دفعها ، فهو يمسك
قائمة النعش الذي تحمل عليه امرأته ، ويلح على أبيها بأن
يعطيه أختها عرضاً ، فيجيبه أبوها إلى ذلك وخاصة إذا
كان له أولاد .



أحزانهم

لا تفرق أحزان السودانيين عن أحزان المصريين
في الموضوع وإن اختلفت في الشكل كما يقول أهل
القانون ، فالميت حين تفارقه روحه عندنا يوضع على
مراتب في الأرض بينما يمدده السودانيون على عنجريب
مرتفع عنها ، وحين يقضى على عزيز عندهم يصيح نساؤهم
وينتجنن ويحثن التراب ويجلسن حوله للبكاء والنحيب
كعادة العامة من المصريين .

أما الرجال فينعونه إلى البلاد المجاورة ويجلسون
في فناء الدار للقيام بواجب العزاء ، ويأخذ النساء
في الضرب على طست من النحاس ضرباً حزيناً يسترق
الدموع والآهات ، ثم يشرعن في أسلوبهن المعروف
يعددن مناقب الفقيد العزيز ؛ وكما يحدث في مصر تستقبل
السيدات من أهل الميت صديقاتهن بالنواح كلها أقبلن
لتقديم هذا الواجب ، فأن كانت إحدى المعزيات حديثه

عهد بحزن على فقيد بدأ النادبات يندبن هذا الفقيد ويعددن
مناقبه تحية منهن لمن عرفت الواجب وقدمت العزاء !
وفي أثناء ذلك يرقص الحزاني بالسيوف والعصى
ويصحن صيحات تستجلب العطف وتفتت الأكباد ..
أما « عديدهن » ففيه بعض ألفاظ لا بأس من
ذكرها ، كقولهن واسجماه ، واحزنانه ، وامصيتهاه ،
يا حليلك هاى ، يا شديد الحيل ، يا جمل الشيل ، يا مقنع
الكاشفات ، يا راجل الحكام .

أما الرجال فقد اعتادوا بعد أن يستقر بهم المقام
فى فناء الدار أن يهللوا ويكبروا بقولهم « لا إله إلا الله
محمد رسول الله » سبعين ألف مرة أو يقرءون قوله تعالى
« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له
كفواً أحد » مائة ألف مرة ...

ط

علاج المروع : إذا جرح أحدهم لأمر ما صب
على الجرح سمناً مغلياً ثم يعقبون على ذلك بغمس قطنه
في سمن بارد ويضعونها على المكان المجروح ويربطونه
ثم يكررون هذا العلاج مدة أيام مراعين أصدق طرق
النظافة إلى أن يبرأ الجرح من السقام ، أما الجروح
الخفيفة فعلاجها بسيط ، يرشون عليها ملحاً أو بناً ثم
يضعون عليها سمناً بارداً ، ومن العجيب حقاً أن علاجهم
لجروحهم منتج ومفيد بل سريع المفعول يكاد يكون
الشفاء واقعاً في كل حالة

شربة السمن : هي عبارة عن رطل من السمن يسخن
ويشرب في الصباح المبكر على الريق ولا يشرب بعدها
ماء بارد مطلقاً وهي عظيمة ولها أثر محمود

شربة السنامكي (السومكي) : يشرب منقوعها مع
التمر هندي والسكر وهي معروفة في بلادنا وشديدة المفعول

سُرَّةُ الجرذة : وهى تراب معدنى يعالجون به المغص
ووجع المعدة والأمعاء ، ويعالجون بها الزهرى أيضاً
ويهتم بالمريض الأسرة كلها ، وفى سؤالهم عليه بعض
الفاظ لطيفة أقرب إلى اللغة العربية كقولهم عسى طيب
النهار دا . . . المولى يعفو عنه إن شاء الله ؛ وإذا نزل بهم
وباء واشتد وأثقل عليهم يطوف الأولاد فى الشوارع
منادين « يا لطيف لم نزل ألطف بنا فيما نزل » أو « يا خالقنا
نحن ضيقنا ! »



مجالسهم

يقضون أوقات سمرهم في فناء منازلهم لا يعرفون
جلسات القهوة ولا سمر النوادي ، فكل بيت عندهم ناد
للأسرة يجمع أحسن ما تجمعه النوادي والقهوات ، ففناء
الدار عامر بالأشجار المورقة التي تظلمهم في الهجيرة وتغنيهم
عن السقف حين تعوزهم السقوف ، وهم في الغالب
يجلسون على (عنجريات) القرفصاء أو مربعين على
أبراش في الأرض وقلما يستعملون في جلساتهم الكراسي
وإن كان خاصتهم يؤثرونها في مجالسهم ويوتهم .

وجلوسهم مع ملوكهم آداب معروفة تلحظها في هذا
الاحترام العميق المشهور عندهم ، والمعروف عند الأمم
جميعاً في احترام الملوك والحكام .

ويلى الملوك في الاحترام والتقدير العلماء ثم الشيوخ
فإذا حضر العامة مجالس هؤلاء العلماء والشيوخ جلسوا
في الأرض على ركبهم تأدياً واعتباراً للسادة الجالسين

ولا يتكلم الشاب في حضرة أبيه أو أخيه الأكبر ولو
كان أفصح لساناً وأعرف بآداب المجالسة والحديث ؛
وأظهر ما فيهم أن حكم الجماعة في مجالسهم أفضل من حكم
الفرد كما تنص الشريعة الإسلامية في جميع الأحكام التي
تصدر عن مجالسهم .

وسيدات البيوت الرفيعة لا يجالسن الرجال إلا إذا
كانوا من الأهل الأقربين . وإذا طلبت امرأة إلى مجلس
رجال لأداء شهادة أو تقرير واقعة تلتصت بشوبها فلا يظهر
من وجهها غير عينيها وهما في أكثر الأحيان أدعى إلى
السحر والفتنة في غيبة الوجه الملفوف ! ثم تجلس السيدة
مطربة في الأرض وتتكلم بصوت خافت في شيء من
الانكسار ؛ وإذا زارها رجل في بيتها حدثته من وراء
جدار ؛ وإذا مرت بمجلس رجال خلعت نعلها وسترت
وجهها ، أما الجارية فتخلع نعلها وتحسر عن رأسها ، وإذا
جلس الرجال على جانبي طريق فهي لا تجرؤ على المرور
بينهم بل لا بد أن يقوم فريق منهم إلى الجانب الآخر
حتى تستطيع أن تحتل حياءها في ساعة المرور ! وإذا

كانت راكبة ترجلت عن دابتها وسارت على قدميها حتى
إذا انتهت من مجلس الرجال عادت إلى دابتها .
ومن آداب الشارع ألا تسير مسرعا بل في تَوَدَّة
واتزان ، وألا تأكل مهما يكن بك سغب ، كما لا ينبغي
أن تصفر أو تضحك بصوت عال أو تغني أو تبول إلى جانب
الطريق ، كما أن الدائن لا يطالب مدينه في الشارع مطلقاً
كما لا يطالبه في الفجر أو بعد الغروب في أى مكان !



سلامهم (١)

وسلامهم المصافحة باليد . وإذا اجتمع صاحبان بعد فراق طويل تعانقا بالأكتاف وذلك بأن يجعل كل منهما يديه على كتف الآخر ويضمه إلى صدره وينقل رأسه من كتف إلى كتف مرتين أو أكثر ثم يأخذ يد رفيقه ويقبلها .

وإذا كان أحدهما قد فقد حبيباً في أثناء فراقهما فعند اللقاء يبسط كل منهما يديه رافعاً إياهما نحو السماء ويقرأ الفاتحة بصوت منخفض ثم يتصافحان ؛ هذا في سلام الرجال ، أما النساء فسلامهن التقبيل في الوجه كنساء مصر والشام ، وأما سلام النساء على الرجال فبين الأقارب تحنى المرأة رأسها للرجل فيقبله وهي تقبل يده ، وإذا كانت المرأة مسنة قبلت رأسه وهو لا يقبلها ، ومن كلامهم في اللقاء كيف حالك ؟ طيبين مك طيب ؟ طيبين

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير

الحمد لله الله يسلمك ... كيفنكم (كيف حالكم) —
العويلة والبهيمات كيف حالهم لعل ما عندهم عوجه —
الحمد لله تراهم هسّع الله يكفيهم شر المن هنا وجاي .
زريعاتكم كيف أنهن — والله عاد نحمد الله إن ختين
(أى سلمن من الدودة والجراد ما عندهم عوجه) وعند
الوداع يقول الواحد للآخر سلم على اللي قدامك .



شجر شحم

عرب السودان عموماً نساء ورجالا حضراً وبادية
يدهنون رؤوسهم وأجسادهم بالشحم والسيرج لتخفيف
وطأة الحر ، ويتطيبون بالروائح العطرية وأشهر هذه
الروائح عندهم المسك والقرنفل والصندل وغيرها ؛
وأحب المركبات العطرية إليهم مركب سائل يسمى
الخمرة مؤلف من مقادير معينة من المسك والجلاد
والزباد والقرنفل تذاب بماء خشب الصندل وتخمّر
وتحفظ في أحقاق هندية محكمة الغطاء ، أما الصابون فقل
من يستعمله ولا سيما أهل البادية ، فأن أهل البادية
الشرقية يغسلون ثيابهم بطرق خاصة وأهل البادية الغربية
يغسلونها بقشر الأهليج .

(الدلكة) ومن أشهر عاداتهم « الدلكة » وهي
بمشابة الدلك في الحمامات التركية فهم يأخذون شيئاً من

عجين الذرة ويخلطونه بالماء حتى يصير كالعصيدة ويحمد
(الثريد) قليلا بوضعه على الدوكة فوق النار ثم يملأونه
في قدر ، ويوقد نار من خشب الطلح والشاف والكليت
في قدر آخر ويكفأ القدر التي فيها العصيدة على القدر
الموقدة فيها النار حتى تجف العصيدة وتتدخن برائحة
الأخشاب المذكورة فيعجنونها بمعجون الدلكة ثم
يقرصونها كتلا صغيرة ويدلكون بها . أما معجون
الدلكة فهو لف من دقيق القرنفل والمحلب وخشب
الصندل والظفر ويعرف بالمربوع ويضيفون إليه اللبان
أو السنبل فيسمى بالخموس ، ويضيف الخاصة إليه
الجلاد والزباد والمسك ويعرف بمعجون الخاصة ؛ وهم
يدلكون أجسادهم في كل صباح ومساء قبل النوم وبعده
ثم يتطيّبون بالخمرة

وذكر بعض الأطباء عدة فوائد صحيحة للدلكة منها
أنها تقوى الأعصاب وتقلل الإفراز الجلدي وتزيل شعر
الجسم وتكسبه ملاسة وترطبة وتخفف حرارته لأن
الأجسام السوداء شديدة القابلية لامتصاص الحرارة
(التدخين) وما اختص بالنساء دون الرجال

« التدخين » وهو بمثابة الحمام لهن ، وهذا الحمام عبارة
عن غرفة كثيرة النوافذ في وسطها حفرة صغيرة وإلى
أحد جوانبها دكة عالية فإذا أرادت المرأة التدخين أوقدت
في الحفرة ناراً من خشب الطلح أو الشاف أو الكليت
أو غيره من الأخشاب الطيبة الرائحة ، وسدت نوافذ
الغرفة إلا نافذة واحدة لخروج الدخان ثم تتجرد من
ثيابها وتمسح جسمها بالسرج ، وتشتمل بشملة من
الصوف وتجلس على حافة الحفرة ورجلاها ممدودتان
على عود فوق الحفرة ، وتستمر على ذلك إلى أن تخذ
النار فيحمر جسمها ويتحلب العرق منه صيباً فتقوم
وهي لا تزال مشتملة بشملتها فتستلق على الدكة وتفتح
النوافذ ، واحدة بعد أخرى حتى يخرج الدخان ويحف
العرق تدريجاً ، فتأتي إحدى الجوارى وتدلكها وتطيبها ،
ومن خصائص التدخين أنه يكسب المتدخنة لوناً
أصفر ورائحة عطرية مستحبة جداً عند عرب السودان ،
وهو نافع لمرض المفاصل والأمراض العصبية

مساكنهم

أكثر أبنية الحضر بالطوب النىء أو بالطوب المعروف
عندهم بالجالوس ؛ وقل من يبنى بالطوب المحرق ، وغالب
بيوتهم مربع الشكل مسطح السقف ؛ يسقفونها بخشب
النخل أو الدوم أو السنط وما إليها ؛ ويجعلون فوقها
شبكة من حبال الشعر أو الحبال المصنوعة من رقيق الدوم
مصبوغة باللون الأسود ، ثم يغطونها بالبروش ويضعون
فوقها « المطارق » أى العصى والييس ثم الطين المصنوع
من الزبل والتراب على نسبة الثلثين من الزبل والثلث من
التراب ، يوضع فيه الماء مدة أيام حتى يخمر فيطينون به
السقف والجدران الأربعة لمنع الوكف ووقايته
من الأمطار .

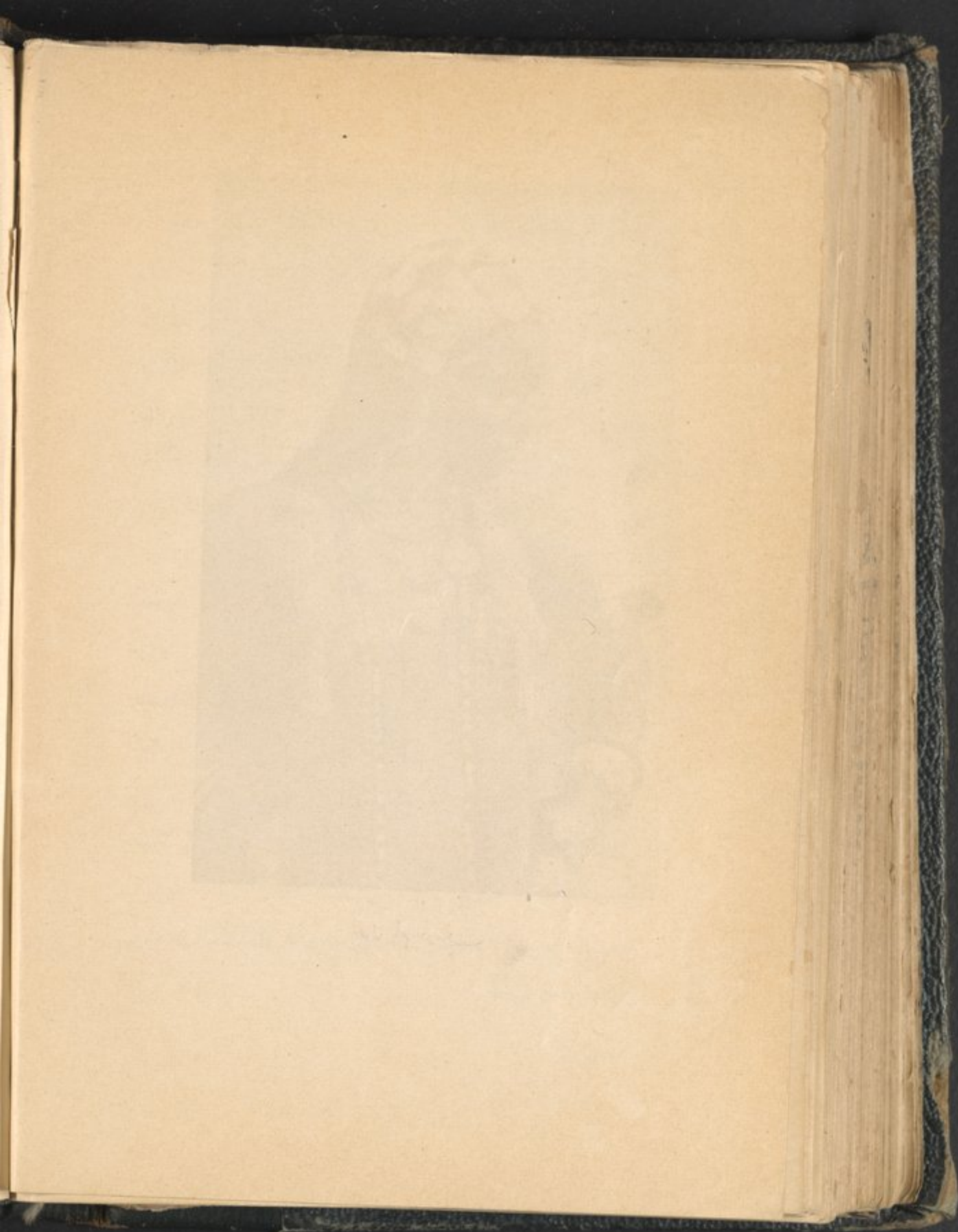
وفى دنقلة حيث يقل وقوع المطر لا يطينون السقف
ولا الجدران ، ولكنهم يرفعون السقف برمتها على

حجارة نحو شبر لوقايتها من الأرضة ، وكلهم يطينون
أراضي منازلهم بالطين والرمل ، أو لا يطينونها ، ويبيضون
جدرانها أو لا يبيضونها وهو الغالب .

وجميع منازلهم سفلية فلا يبنون دوراً عالياً ولا مآذن
لجوامعهم إلا في النادر ولا يتخذون كنفاً إلا في المدن
الكبيرة ، ولكنهم يحيطون بيوتهم بجدار من شوك
فيسمونه « زريبة » أو من خوص فيسمونه « صريفاً »
أو من طين أو من طوب نء فيسمونه حوشاً ، والحوش
لا يكون إلا مربعاً أو مربعاً مستطيلاً ، فإذا أراد واحد
من ذوى اليسار أن يبنى منزلاً تاماً يعتمد إلى قطعة
من الأرض مربعة فيحيطها بحوش ارتفاعه نحو قامة
ويجعل له باباً واحداً ، ثم يقيم في وسطه حائطاً فيجعله
حوشين ، حوشاً للنساء وهو الداخلى وحوشاً للرجال وهو
الخارجى ، ويفتح فى الحائط باباً صغيراً يدخل منه لحوش
النساء حيث يبنى منازل لنسائه وجواريه واسطبل لركائبه
ومطبخا ومخزناً للحبوب ، ويبنى عند الباب غرفة لجلوس
الخصيان يسمى بالدهليز الداخلى ، وغرفة بالقرب منها
لجلوسه مع نسائه .



جمال أم درمان



ويبنى في حوش الرجال عند الباب غرفة لجلوس العبيد
والخدم تسمى بالدهليز البراني ، وفي صدر الحوش يبنى
ديواناً لجلوسه مع زائريه له دكة من طين يفرشها بالبرش
والسجاد ، وعن جانب الديوان غرفة يضع فيها بضاعة
إن كان تاجراً ، ويجعل أمام الديوان « راكوبة » لجلوسه
مع زائريه ، ومن داخل منازل للضيوف ، ويبيت
خلاء ، وعلى دائره من الخارج غرفة لعبيده ، وقد يبنى
صفاً من الغرف بقرب المنزل فيجعلها خلوة للضيوف ، وهذا
غاية ما يبلغه منزل الحضري العربي في قرى السودان .

هذا بشأن المنازل المربعة والسقوف المبنية من طوب
أو من حجر أو طين وكلها على النيل الكبير ، أما أهل
النيل الأعلى ومعظمهم أهل السودان الشرقي والغربي فإن
أكثر منازلهم أكواخ مخروطية الشكل كأكواخ السود
لأنها أهين وأقدر على تحمل المطر الذي يكثر وقوعه
في بلادهم ، وهم يضعونها من اليبس والطين ، فمنها مادائره
من طين وقبته من ييس وهو الدردر ، ومنها مادائره
من ييس وقبته من ييس أيضاً ، ومنها ما يستخدم
للطبخ فقط .

ومن أكوأخهم ما يسمى ظهر الثور أو الكرنك
 يبنونه من اليبس والبروش على شبه ظهر الثور أو القبوة
 ومنها ما يسمى الراكوبة وهى بناء مربع يستطيل من
 اليبس والخطب له سقف مسطح وثلاثة حيطان (١)



(١) هذا فى القرى أما المدن كالخرطوم وأم درمان والأبيض وغيرها
 فبيوتها كبيوتنا فى مصر تتفاوت فى الكبر والصنخامة .

أثاثهم

(العنكريات — العنجريات) ومفردها عنكريب
أو عنجريب وهي أسرة من خشب مشدودة قوائمها
الأربع بسيور من جلد البقر أو بحبال من سعف النخل
أو الدوم ، تفرش بالسجاد أو البروش ، وتستعمل
للجلوس والنوم وقد تصنع كلها من نسيج الخوص لا تقاء
البعوض وغيرها من الحشرات .

(البنابر) ومفردها بنبر وهي كراسى صغيرة واطئة
تشبه الكراسى المستعملة في بعض القهوات البلدية في مصر
(الكراسى) وهي بناء بمسندين لليدين ومسند للظهر
على نحو الكراسى الأفرنجية تصنع من خشب الصنت
في الغالب (الككر) وهو الكرسي الذي يجلس عليه
ملوكهم أخذوه عن السود ، وهو عبارة عن قطعة من
جذع شجرة متينة الخشب ، محفورة من أعلى ومن أسفل

بحيث يكون لها مسندان لليدين من أعلى وقاعدتان
من أسفل .

(الأجرة) من جلود الماعز والضأن والأبقار
والغزلان تحفظ فيها الحبوب ، ولا سيما في الأسفار ،
ويعرف الجراب الصغير بالقفل ويستعمل للثياب والدرهم
(القرب) من جلود الماعز تستعمل لنقل الماء كما
كانت تستعمل في مصر من أعوام ، وقد تصنع من جلود
البقر وتعرف بالسقا أو الراوية ، أما القرية الصغيرة
فتعرف بالسعن .

(الرحاية) وهي رحي اليد ولكنها قلما تستعمل في
غير بلاد دنقله .

(المرحاكة) وهي آلة للطحن خاصة بالسودان وهي
حجر أسود مسطح طوله نحو ذراع وعرضه نصف ذلك ،
ومعه حجران ييضوي الشكل ، يقال للواحد الجراش
ولآخر الرداد ، طول الواحد منهما نحو شبر . أما الرداد
فتحته بشخن الساعد والجراش أثخن منه قليلا ، وأما كيفية
الطحن فهي أن يوضع الحجر الكبير على سطح مائل ،
وفي أسفله قدح فتركع الجارية عند طرفه الأعلى وعلى

يمينها الحب المراد طحنه ، وفي يدها الجراش فتأخذ من
الحب شيئاً فشيئاً وتلقيه على الحجر الكبير ، وتسحقه
بالجراش صعداً ونزلاً فيسقط في القدح دقيق فتبله بالماء
وتعود فتطحنه بالرداد إلى أن ينعم جداً فتجعله على النار
حتى يصبح عصيدة .

(الدوكة) وهي آلة للخبز شبه الصاج تصنع من
حجر الهمر الكثير الوجود في السودان وهو حجر هش
يسحقونه دقيقاً ثم يعجنونه بالماء ويجعلون منه أقراصاً
مستديرة شبه الصاج ويتركونه حتى يجف ثم يجعلون في
كل قرص قطعة من الدهن ويضعونه على النار نحو ساعة
حتى يتشرب الدهن كله ثم يتركونه يبرد ثم يعيدون ذلك
ثلاث مرات فيمتن الحجر ويملس ويصبح صالحاً للخبز
فيخبز عليه كما يخبز على الصاج عندنا .

(الأقداح) الخشبية منها وهي آنية للطعام والعجن
ونحوهما .

(المسكبات) وهي أغطية الأقداح تصنع من سوق
القمح على شكل مخروطي ، وتلون وتزين بالجلود المدبوغة

(الأطباق) تصنع من سعف الدوم ويوضع عليها
الخبز وألوان الأظعمة .

(البروش) تصنع من سعف النخل والدوم وتستعمل
بدلاً من الحصر عندنا .

(الفندق) وهو هاون كبير من خشب بيد من
خشب أيضاً تدق به الحبوب لإخراج نخالتها .

(الجبنة) وهي أبريق من نخار تغلى بها القهوة والشرعرع
وهو فنجان مربع من خشب يرافق الجبنة له يد يمسك
بها وفم تصب منه القهوة ، أما قهوة الجبنة فتصنع هكذا :
يحمص البن بتحريكه في قدح مع الجمر ويدق في هاون
إلى أن ينعم ، وفي أثناء ذلك يغلى الماء في الجبنة فيوضع
البن فيها إلى أن يفور ويسكب في الشرعرع ثم يعاد إليها
ويوضع على النار مع قليل من الماء حتى يفور ثانياً وهكذا
على ثلاث مرات فتسكب في فناجين كبيرة تعرف
بالبيشة وهي من ألد أنواع القهوة .

(الكبيات والفناجين) من قرن الخرتيت وهم يزعمون
أن الفنجان المصنوع منه كاشف للسم ، فإذا سكبت القهوة
فيه طفا السم على وجهه .

(القرع اليابس) تقطع القرعة فلقتين بعد قطع
عنقها فتجعل كل فلكة منها إناء للشرب أو تترك على حالها
وتثقب عنقها من أعلاه فتستعمل آنية للسمن أو اللبن .
(البرم) مفردها برمة وتشبه البلاص المصرى إلا
أن فيها واسع .

(الكنتوش) أو دوكة الملاحاة وهو قدر من
نخار للطبخ وهم يستعملون في طبخهم القدور النحاسية
أيضاً التي تستعمل في مصر .

(الجر) وهو الزير ومنه نوع كبير تخزن فيه الذرة
(غلايين الدخان) وقد تكون كلها من حجر أو
تصنع رؤوسها من حجر وعيدانها من فروع بعض الشجر
(السروج) أى سروج الخيل والحمير وهى تختلف
قليلاً عن السروج المصرية ، أما سروج الحمير فلكل منها
قربوسان عريضان أو مسندان فى شكل واحد يوضع على
وسادة من يبيس النال مما يلي ظهر الدابة

طعامهم

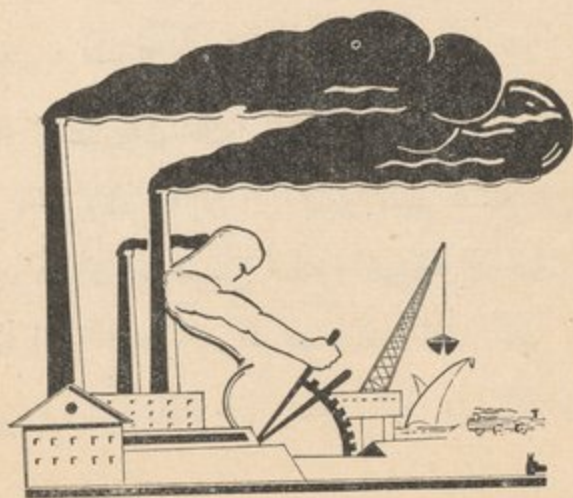
أكثره الذرة والدخن وأقله القمح ، وأكثر أكلهم
من الخضر ينحصر في الباميا والملوخية والويكة واللوييا
والبصل، وطعامهم في اللحوم ولحم الضأن قليل .

وأشهر بهاراتهم وأشهاها اليهم « الشطة » وهي قرون
صغيرة حمراء تشبه قرون الفلفل الأحمر في اللون والطعم
وتزرع في كل جهات السودان .

ووجبات الأكل عندهم ثلاث : الفطور يتناولونه عند
شروق الشمس ؛ والغداء في الضحى الأعلى إلى الظهر ؛
والعشاء عند الغروب ، وأهم ما يتناولونه في الفطور العصيدة
أو اللقمة عليها اللبن حليباً أو رائباً ، أو السمن والعسل
أو السمن والسكر ، أو الشعرية مطبوخة بالحليب ، أو
بالسمن والسكر ، ومنهم من لا يتناول الصبح إلا طعاماً
لم يمسسه النار كالبلح والحليب ، ومن أقوالهم « من فطر

طعاماً بلا نار كفاه الله شر ذاك النهار » على أن غالبهم
لا يعتنى بأكل الصبح بل يأكل في الضحى الأعلى ثم
الغروب ؛ وأهم ما يتناولونه في الغداء العصيدة أو اللقمة
أو الكسرة أو القراصة وعليها الأدام وفي العشاء الكسرة
مع الأدام.

وهم يقدحون النار بحك خشبة على خشبة أخرى أو
بضرب قطعة من الفولاذ على حجر أو بضرب حجرين معا
ويتلقونها في الأحوال الثلاث بقطعة من الصوفان أولب
الخص أو خرقة ملوثة بالرماد أو البارود .



شرب البهيم

يشربون ماء النيل والآبار المنتورة هنا وهناك ،
ويشربون الشاي والقهوة وأفضلها قهوة الجبنة وهي ألد
وأطعم قهوة يعرفها السودانيون .

وهم يدخنون أيضاً بغلايين طويلة أو قصيرة أو
يمضغون الدخان مضغاً بعد أن يضيفوا إليه قليلاً من
النطرون وهذا معروف عندهم «السفة» ويسحقون ورق
الدخان ويضيفون إليه شيئاً من النطرون أو الجرذقة ،
ويستعملونه نشوقاً .

وهم كأغلب المواطنين من العامة في السودان مغرمون
بتعاطي الخمر وشربها إلا أن كثيراً منهم يمتنع عن شربها
تديناً ، وهي تستخرج من البلح والذرة والدخنة ، وتخمّر
بوساطة الزراع ، والزراع هو الذرة تنشر على برش في
الشمس وترش بالماء حتى يعلو نباتها عن الأرض نحو

شبر فيمنع عنه الماء إلى أن يجف فيطحنونه بالمرحاة ،
ويدخلونه في جميع المشروبات التي أشهرها أم بلبل ،
والمريسة أو البوظة ، والأبرية .

أما أم بلبل فهي عصيدة مائعة من دقيق الزراع وأما
البوظة أو المريسة فهي عصيدة من الذرة يضاف إليها شيء
من الزراع ، وتوضع في زير نحويومين حتى تخمر ، وهي
أشهر مشروباتهم وأشهاها إليهم ، وتعرف في بربر ودنقلة
بالبوظة ، وفي بلاد النيل الأزرق بالمريسة ، وأهم
الأطعمة التي تؤكل مع البوظة السكبد وما إليها .

أما الأبرية فهي خبز رقيق من دقيق الذرة يبل بالماء
أو بمذوب السكر ، وهو شراب لطيف مبرد يساعد على
احتمال الجو الحار في بعض مناطق السودان ، وكيفية عمله
أن يذاب جزء من دقيق الذرة المنخول في جزءين من الماء
ويضاف إلى المزيج قليل من الكمون والزراع ويترك يوما
كاملا إلى أن يختمر فيخبز رقاقا على الدوكة ، ويفتت
ويخزن لوقت الحاجة ، وأكثر استعماله في زمن الحر
وفي الأسفار .

ومن أهم المشروبات المستخرجة من البلح : العرق
(العرقى) يستخرجونه بالأنبيق كما يستخرج العرق من
العنب في بلادنا وهو على كل حال أصلح مما يباع في مصر
مخلوطاً بمواد تسيء إلى الصحة والبدن.

ثم إن الخاصة من أهل السودان يستخرجون
مشروباً لطيفاً من الرز يسمونه شراب « السويية » وذلك
بأن يغلى دقيق الرز أو القمح ، ويمزج بمنقوع التمر
هندي على نسبة معينة ، ثم يصفى ويذاب فيه السكر
أو غسل النحل ، ويحفظ في آنية من فخار ، وهو شراب
مبرد إلى الغاية .

ولعرب السودان صبر عجيب على الجوع والعطش
فقد يسير العربي منهم مسافة يوم في الصحراء على حفنة
من الذرة وجرعة من الماء ، وإذا لم يجد طعاماً شد حزامه
على وسطه واحتمل الجوع بصبر غريب مهال بالبه السغب
وللسودانيين جميعاً شهرة عظيمة في اعتنائهم بأسنانهم
رجالاً ونساء يحملون في جيوبهم عيداناً من الأراك أو
اللوث أو جريد النخل (مساويك) للاستياك بها وذلك
من أفضل خصالهم التي تدل على نظافتهم

حيوانهم

تمتاز بلاد السودان بكثرة حيواناتها من برية وليفية
وتكاد هذه الحيوانات بنوعها تجمع ألوان الحيوان جميعاً
فالسودان في الواقع يمتاز بهذه الميزة التي لا يكاد ينافسه
فيها بلد من البلاد .

وأهم حيوانات السودان البرية هي :

« الأسد » ويسمونه الداني أو دود الخلا، ويصطادونه
صغيراً ويربونه ، أو يصطادونه كبيراً فيجعله ملوكهم على
أبواب منازلهم ليزيدوها مهابة ووقاراً

« الفيل » وهم يصطادونه من أجل سنه وجلده
فيدخلون سنه في التجارة ويصنعون منه أساور ومكاحل
وأغطية لبعض الحلى وكراسى للوسائد الخشبية مقابض
للراوح والعصى ، ويعملون من جلده الدرق ، ولكنهم
لا يستأنسونه كما هي الحال في الهند، وقد قدر أن الفيل لن

يوجد بعد مائة وخمسين عاماً « وحيد القرن » وهو
الكركدن ويسمونه الغنزة أم قرن ويصطادونه لأجل قرنه
المعروف بالخرتيت فيصنعون منه كاسات وفناجين وأيدي
السكاكين .

« الزرافة » وهم يصنعون من جلدها درقاً ، ومن ذيلها
منشآت ، ويلذ لهم لحمها ويقددونه كما يقددون لحم البقر
الجاموس البرى وبقر الوحش معروفان ، وهم
يصطادونهما ويصنعون من جلدهما الدرق

« حمار الوحش » ويسمونه حمار الخلا وحمار الوادى
وأكثره يوجد فى الصحراء الشرقية ، وهم يصطادونه
ويستأنسونه .

وهناك إلى هذه الحيوانات كثير غيرها كالضبع والذئب
والخنزير البرى ، وهو الزباد والتيتل والغزال والقردة
وما إليها .

وهم يصطادون الكواسر بالبنادق والحيل والشراك
وأبسط شراكهم حفرة يحفرونها فى طريق الكواسر
على عمق خمسة أمتار أو أكثر ، ويغرزون فى بطنها أوتاداً

متينة محددة الروس ، ويسقفونها بالعيدان والبروش أو
الحصر ثم يحثون فوقها التراب ، ويجعلونها كالارض تماماً
حتى لا يفتن اليها الحيوان ، فاذا مر الكاسر بالشرك وقع
فيه ولم يستطع إلى النجاة سيلاً .

ومن شراكهم شراك الماعز ، وذلك أنهم يربطون
ماعزاً إلى وتد ، ويحفرون حوله خندقاً مستديراً بحيث
يبقى الماعز قائماً على اسطوانة من الأرض حول الخندق
ثم يوارون الخندق بالعيدان والتراب على نحو ما تقدم
وصفه ، فاذا أقبل الكاسر لاقتراس الماعز سقط في الشرك
من حيث لا يدرى .

أما حيواناتهم الأليفة فهي معروفة عندنا في أغلبها
كالأبل والخيل ، والحمير والبغال ، والبقر ، والضأن ،
والمعز ، والكلاب والهررة .

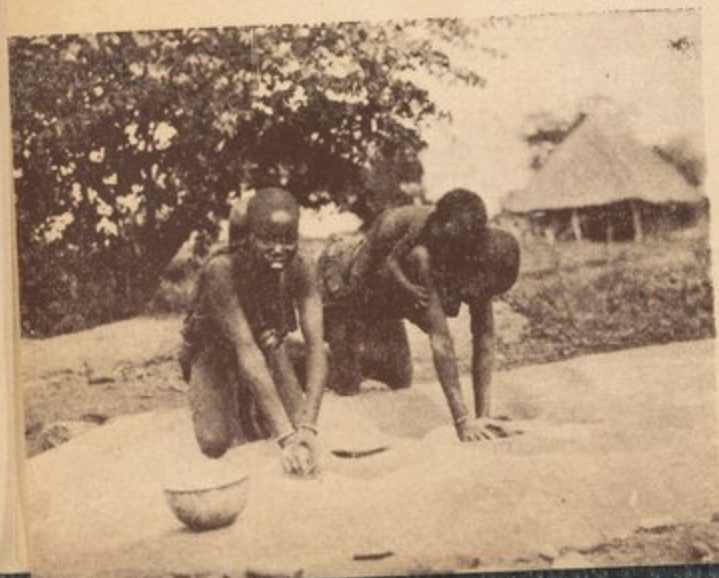
أما الأبل فهم يؤجرونها ويستعملونها في كل جهات
السودان ، ويعيشون في بعض الأحيان على ألبانها كما
ينتفعون بجلودها ويضعون بعض خيامهم من أوبارها ،
ومن أشهر أبلهم للحمل أبل الهدندوة فأنها أصبر على الجوع
والعطش ، أما الهجين فأشهرها أبل البشاربه



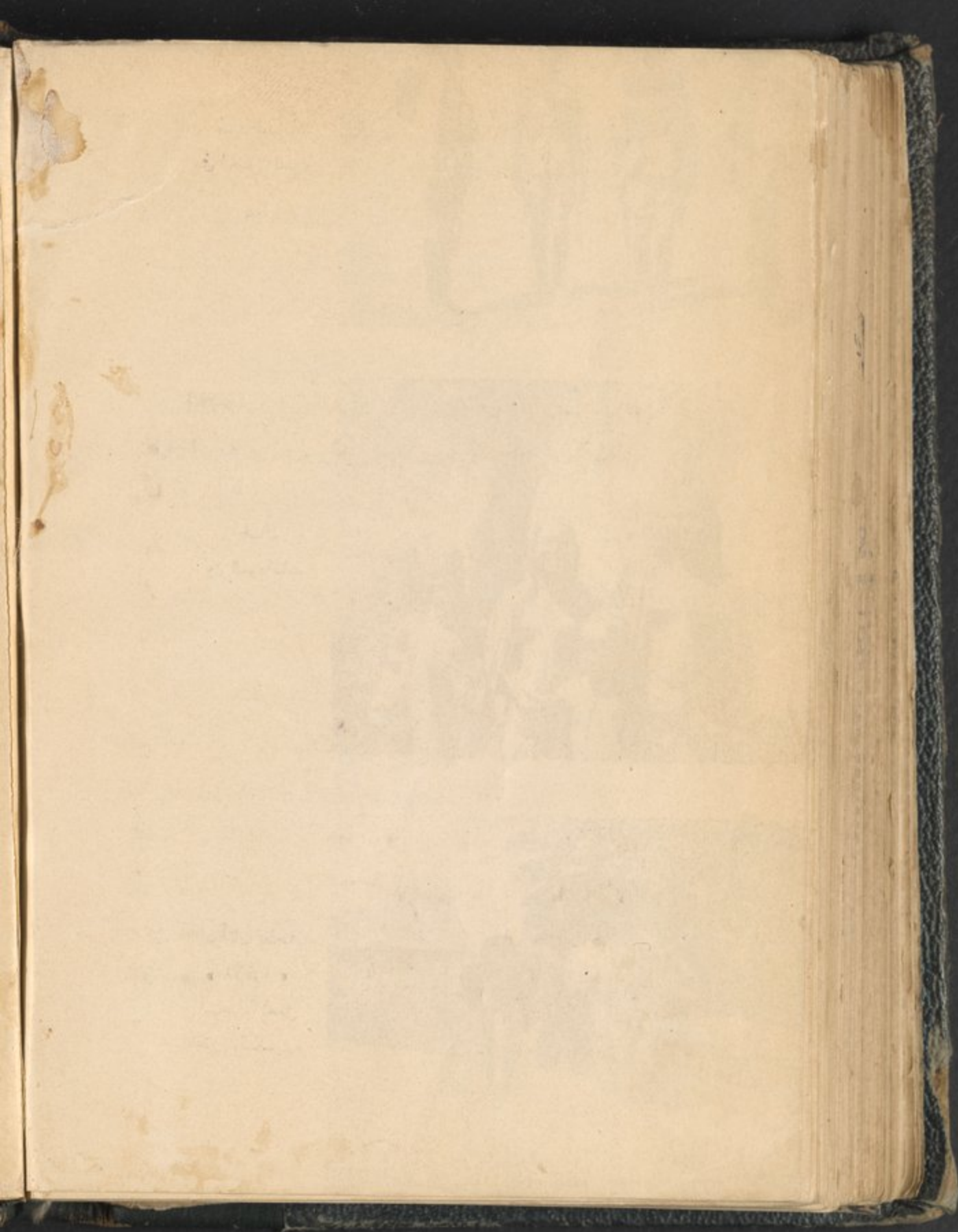
جنود السودان
في الجيش المصري



الجمال
بين السودانيات



امرأتان تطحنان
« الأذرة »
استعداداً لعمل
الخبز والكسرى.



مقدمة

أعطيتك في الفصول السابقة لمحات خاطفات عن حياة العامة في السودان ، في طباعهم وأخلاقهم ، وأخذهم الحياة وفهمهم لها ، ويخيل إلى أن الحديث في هذه الموضوعات قد أعطاك صورة فيها من تواضع الحياة شيء كثير ؛ بيد أنني لا أريد أن يكون هذا التقدير هو وحده مقياس حضارتهم .

فهنالك إلى هذه القرى الكثيرة المنتشرة في كل مديرية تقوم مدن عظيمة خالدة ، فيها من الحياة الحديثة ما في القاهرة والاسكندرية وطنطا ، فالخرطوم حاضرة السودان جميعاً ، لا تمتاز عليها القاهرة في شيء اللهم في آثارها القديمة واتساع مساحتها ، ففي الخرطوم اليوم مبان حديثة رائعة وإن لم تبلغ مبانى القاهرة في حجمها إلا أنها لا تقل عنها نفامة . وفي الخرطوم ترام وسيارات

عامة وخاصة ، وفيها النور الكهربائي في كل بيت تقريباً
وفي كل شارع

وتمتاز الخرطوم عن القاهرة مثلاً في أن تشييدها
قائم على قواعد صالحة فهناك كثير من الميادين الواسعة
والحدائق المنتشرة في كل جهة ، وشوارعها متسعة جداً ،
أقيم على جوانبها الأشجار الباسقة التي تقيك الهجير
وحرارة الشمس ؛ وفي الخرطوم إلى هذا مدارس بعضها
يتبع نظم الدراسة في مصر كما فيها مستشفيات ودور
كثيرة للسينما ، وحوانيت فيها كل ما يحتاج إليه الناس ،
وكل ما تشتهي له النفس

ومن العجب أن أحاول وصف خرطوم اليوم فهي
مدينة عامرة يرتاح إليها القاهري والباريسي على السواء ،
وعلى غرارها شيدت خرطوم بحري وأم درمان ، وغير
هذه المدن الثلاث قامت الحواضر هنا وهناك تجمع
أسباب الراحة والطمأنينة ، وتعطيك صورة رائعة عن
السودان في عصره الحديث

لكي أصور لك هذه الحقيقة يجب أن أردك إلى
مدننا المصرية ، فطنطا والمنيا والاسكندرية والقاهرة ؛

هذه المدن كلها قد قام على تشييدها وإصلاحها المصريون
كذلك قام المصريون بتنظيم مدن السودان وتعميرها ،
فالذوق المصرى وحده هو الذى جعل فى السودان بلاداً
تباهى حواضرنا وتنافسها فى المدنية والعمران

فأنت لا تستطيع أن تنكر على سواكن والأبيض
والفاشر هذا التجديد الملحوظ فى بناء المساكن ، ولا
هذا العمران المشاهد فى كل شارع وميدان ، ولا هذه
الحركة التى تدل دلالة واضحة على الحياة العامرة فى تلك
المدن ، الحافلة بألوان المدنية وأشكالها المتباينة على غرار
الغرب فى كثير من الأحيان .

فلتكن هذه الحقيقة الصادقة نصب عيوننا فهى
تؤكد فى غير قصد ولا التواء أن المدنية السودانية
لا تختلف فى صميمها عن المدنية المصرية ، وتشبهها وتجربى
على آثارها فى كل ميدان

خاتمة في كلمات

من خطبة عزيز عزت باشا

بمنشستر في ٤ يونيه ١٩٢٤

إنكم لتعلمون جميعاً أهمية العمود الفقري لكيان
الإنسان ، هذا العمود مقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم
العنقي . القسم الظهرى . القسم القطنى ؛ فلو انكم تنزعون
قسماً من هذه الأقسام من أحد الناس أو جزءاً من قسم
لأعجزتموه مدى الحياة ، ومصر بالمثل يمكن تقسيمها إلى
ثلاثة أقسام : السودان . النوبة . الوجه البحرى ، فإذا
تدخلتم بالقوة فى جزء من هذه الأجزاء أصبحنا عاجزين ، أما
إذا انتزعتم أو بترتم جزءاً حيويّاً كالسودان فقدنا الحياة .
لرجال الدول السياسية أن يحددوا الحدود ويلونوا
الخرائط ويلعبوا بالألفاظ كما تصور لهم أهواؤهم وخيالهم
ولكن الطبيعة ليست طوع بنانهم ، الطبيعة تعرف كيف
تثبت وجودها وتؤيد أحكامها .

في ١٨٨١ كان البرلمان المصري يضم عشرين عضواً
يمثلون السودان

قال اللورد سالزبرى في ١٨٩٨ « إن وادي النيل
ملك مصر وسيبقى دائماً ملكاً لها » .

وقال لورد روزبرى « مصر هي النيل والنيل هو مصر »
قال هيرودوت « مصر هبة النيل نزل وحي
في هيكل آمون المقدس يقول إن مصر تشمل كل أرض
يجرى فيها ماء النيل أو يرونها ، والمصريون هم الأمة التي
تشرب ماء النيل »

في سنة ١٨٩٨ نشر لورد روزبرى في الكتاب
الأزرق الذي أصدره بشأن فاشوده ، خطاباً
من بطرس باشا غالى وزير الخارجية ، وفيه يقول « إن
حكومة سمو الخديوى كما تعلمون يا جناب اللورد لم تغفل
طرفة عين عن مسألة استرجاع الممتلكات السودانية التي
تعتبر منبع الحياة لمصر والتي لم تغادرها الجيوش المصرية
إلا بحكم قوة القاهرة ، فاسترجاع الخرطوم لا يكون

ذا فائدة إذا لم يرد إلى مصر وادى النيل الذى من أجله
ضحت مصر فى الماضى كثيراً من التضحيات ، ولقد
كلفتنى حكومتى ، لما علمت بالمفاوضات الجارية بين فرنسا
وبريطانيا العظمى بشأن فاشوده ، أن أطلب من فخامتكم
التوسط لنا عند لورد سالسبورى للاعتراف بحقوق
مصر الثابتة ولاسترداد جميع المقاطعات التى كانت
مصر تحتلها لغاية ثورة المهدي «

« لا ينكر أحد أن النيل روح مصر فالمسألة واضحة
ظاهرة ، والنيل عبارة عن السودان ولا يشك أحد أن
الروابط التى تربط مصر بالسودان هى كالروابط التى
تربط الروح بالجسد هى روابط لا يمكن فصلها ، فإذا
تملكت دولة من الدول شواطئ النيل قضى على مصر
قضاءً مبرماً ، لذلك يصبح معلوماً أن حكومة سمو
الخديوى لا يمكن أبداً أن توافق على هدم كيانه بمحض
اختيارها الخ « (١)

(١) من مذكرة رياض باشا ناظر النظار فى ٩ ديسمبر ١٨٨٤ الى

السير افلىن بيرنج Sir Evelyn Baring

قال اللورد كتشنر وكان إذ ذاك سير هربرت
كتشنر في بلاغ له أنه « إنما يدخل السودان لتخليص
الناس مما هم فيه من الظلم والاضطراب ، وليساعد
الموالين المخلصين من الأهالي ، وليستعيد البلاد لمليكتها
الشرعى خديوى مصر »



mountain
fontaine
valley

تم طبع كتاب « في السودان »
بمطبعة مجلتي (لصاحبها احمد الصاوي محمد)
بشارع الداخلية بالقاهرة تليفون ٥٥٤٥٥
في يوم السبت ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٦

continues
inches

I 14517450

B 12908010

UC - LIBRARY

Date Due

DT
124
A62-
1936



1 0 0 0 0 0 8 4 7 6 7

